رواية

أنس زايدلي

رُثَعْدَنْ

RUTHADAN

رُثَـعْـدَنْ

أنس زايدلي

anaszaidali___

مقدمة

أنا أنس زايدلي..

فتى يتوق إلى السيطرة، لا لأنني تواق للقوة، بل لأنني طالما كرهت أن أُساق.

منذ الصغر، يراودني حلم... حلم أن أكون الآمر لا المأمور.

كنت أغلي كلما حاول أحد من أقاربي فرض سلطته عليّ،

لا أدري ما الذي كان يشتعل في صدري آنذاك،

لكني أعلم اليوم أنني كنت أرفض القيود التي يصوغها بشر مثلي،

بشرٌ نشترك في كل شيء: اللحم، العظام، العقل، الوعي...

فلماذا أطيع أمرك؟

لستَ نبيًّا، ولا تملك شرعًا يعلو فوق شرع الله.

ما عدا ما فرضه الدين، لا سلطان لأحدٍ علي.

ولأني كنت عاجزًا عن السيطرة على الواقع،

كتبت رواية.

رواية أكون فيها أنا السيد،

أقتل من أشاء، وأُحيي من أشاء،

أُشعل الحروب، وأُطفئها بكلمة.

لأنني... في هذا العالم، أنا المسيطر.

إهداء:

إلى أول من قرأ كلماتي..

إلى ابن عمي، ذاك الطفل الذي لم يحفزني على كتابة هذه الرواية، ولم يكن سبب انطلاقها، لكنه كان أول من أنصت، أول من شاركني دهشته حين تتقلب الأحداث، وأنا أقرأ عليه فصولًا من عوالم لم تكتمل بعد.

كان صغيرًا، ينمو كما تنمو هذه الحكاية، ومع كل صفحة كان يزرع في قلبي يقينًا بأن ما أكتبه يستحق أن يُروى.

لم تكن اللحظات التي عشناها طويلة، لكنها خُلِدت في سطر وسطر، في دهشة ونظرة.

وها أنا ذا، أكتب للعالم ما بدأت كتابته له.

شُققت ذاتي شطرين..

فكان أحدهما عتيانا أبدعَ سمرَ الورقِ

ممّا وعى من سابق عهده..

وأمّا الثّاني فأنسٌ..

قيد ما نُفثَ إليهِ من توأمهِ لا كما قيلَ

لهُ.. بل بلسانٍ عاتقٍ موغل في عتيّ

الكلام..

تــــوأمــــي..

أنس وليس عِثْيانا

رُ : 1

ء تيانا وكتابها.. أسلوبي

أدعى عِتيانا.. وها أنا أروي لكم ما جرى لي من الألف إلى الواو دون كـذبٍ.. قد تتساءلون الآن: "لماذا الواو بدلًا من الياء؟" حسنًا، لو طرحتم هذا السؤال قبل سبعمائة عام لما كنتُ لأفهمه أصلًا.. إذ إن كل تساؤل يحمل في طياته استفسارًا يستند إلى معرفة سابقة وإشكالًا يحفّز العقل ليبحث عن إجابة.. هذا ما يصنع الغموض ويجعل الأسئلة تتدفق.. أرأيتم؟ ببعض الكلمات فقط خرجنا عن صلب الموضوع.. لكن لا بأس، فجوهر السرد ليس دائمًا في صرامة التسلسل بل في متعة الاستكشاف..

أما عن جوابي فهو ببساطة أني سأروي حتى أقترب من النهاية.. وعندها ستنتهي الحكاية.. هذا هو المعنى الحقيقي لعبارة "من الألف إلى الواو"..

لكن، من أكون أنا وسط هذا السرد؟ لستُ بطلة القصة ولا شخصًا محوريًا فيها.. بل أنا مثل الرواية نفسها.. عندما تقرأ رواية.. غالبًا ما ينصبّ تركيزك على البطل، أفعاله، خساراته، وانتصاراته.. دون أن تفكر كثيرًا في الرواية ذاتها ككيان مستقل.. لكني هنا.. أنا الرواية.. أنا السرد الذي ينساب في عينيك دون أن تعيره انتباهًا مباشرًا.. ورغم ذلك.. أنت تقرؤني الآن.. إذن فأنت تعيشني..

ربما أثار فضولك شيءٌ قلته قبل قليل: "إن سألتموني قبل سبعمائة عام..." كيف؟ ألستُ بشرية؟ كيف يمكنني أن أتحدث عن ماضٍ بهذا البعد؟ لن أفسد عليكم الإجابة الآن.. كما قلت.. "سأروي" وليس "رويتُ".. لذا ارتقبوا...

ثم هناك أمرٌ آخر.. أعلم أني سأموت يومًا ما.. وسيعثر أحدهم على كتاباتي.. وربما يعيد كتابتها بطريقته، بصياغة مختلفة، بأسلوبٍ بعيدٍ عن طريقتي.. إذًا.. غالبًا ما تقرأونه الآن هو نسخة مستنسخة.. وربما مسروقة.. لكنني لن أسميه سطوًا.. لأني لا أعلم.. لا أعلم ماذا؟ لا أعلم إن كان من وجد كلماتي حافظ عليها بأمانة.. أم صاغها بروحه دون أن يجرّدها مني بالكامل.. على أي حال.. إن وصلتك هذه الكلمات.. فاعلم أن الكاتب - وليس المؤلف - ذو خُلقٍ حسنٍ ونيةٍ صافية.. وإلا لما كنتَ تقرأني الآن.. بلساني أنا..

لذا.. سأضع ثقتي في من وجد حكايتي.. لأن ما يُكتب بصدق.. عادةً ما يجد طريقه إلى مستقبلٍ مشرق..

إذن.. من أنا؟ كما قلت، أنا عِتيانا .تزوجتُ قبل... لا أدري، نسيت. حقًا، لقد نسيت. المهم، لدي ابنة. وصلني عنها خبرٌ كان من امرأة قبل سبعة قرون.. أظن أن تلك المرأة قالت لي أن ابنتي تزوجت في عمرٍ كبير.. ما قصدته بكبير ليس ما تتخيلونه الآن من الأربعينيات أو الخمسينيات، لا، لا. ذو العمر الكبير آنذاك كان من بلغ الثالثة والعشرين وأعلى. فأنا غالبًا تزوجت في مراهقتي.. المهم أن ذاك الخبر لم يكن الأخير..

في وطني آنذاك... هل يعتبر وطنًا أو عالمًا؟ فالوطن هو الدفء، أما العالم فهو اللامحدود. وعلى الأغلب يعتبر عالمًا، لأني لم أر فيه شيئًا من هذا المدعو الدفء. المهم، في عالمي، كانت هناك قبيلتان، ما أقصده بكانت أي قبل عشرة آلاف.. مائتي ألف.. ملايين السنين. آنذاك

كان ينقسم عالمنا إلى الإنس والجن. لا تخف، ليس لا تخف، بل لا تغلق الكتاب. فروايتي لا تتحدث عن الجن قدرما تتحدث عن مخلوقات أخرى.. مخلوقات خلقها المخلوقات وسميت مخلوقات.

العالم مقسوم بجدار عظيم. ضفة للجن والأخرى للإنس. هذا ما جعل رؤساء القبيلتين المتعاديتين يتقايضون السلع. إن تواجدت السلع، إذًا توجد ثروات وأموال.. ولو وُجدت أموال، تواجد عهد البخل والأنانية.. عهد يجعل المرء يبيع مخلوقًا آخر. هذا ما فعله الإنس إذ تاجروا بنفر الجن. وتاجر الجن بأناس الإنس..

هذا ما جعل إنسيًا يُربى لدى أسرة جنية متعاطفة. نفس الأسرة التي تدلل ابنتها البكرة. نشأت بين الإنسي والجنية علاقة حب تدرجت من حب الطفل للطفلة وتجاهل الطفلة للطفل، ثم أحبّت الجنية الإنسي وتجاهلها. وأخيرًا، أحبّا بعضهما. توقف عن تفكيرك الغبي، ولنذهب لوصف الجن في عالمنا. الجن قد تتخيلهم مخلوقات بيضاء لها عينان سوداوان أو شيء من هذا القبيل.. كما نرى أن أصلنا من طين شيء عادي.. فهم يرون أن نواتهم النارية عادية أيضًا.. أتظن أنهم إذا صنعوا من نار فهم مخلوقات نارية؟ أم ماذا؟ إن كان هذا صحيحًا لكنا صخراً مرصوصًا نتواصل بالرياح أم التراب؟ كلام فارغ وعقلية غبية..

الجن أو الجان هم مثلنا. لديهم أذنان طويلتان مدببتان وآخرين لديهم أذنان عادية. فكما يوجد ذوي بشرة بيضاء وسمراء في نسلنا، هم أيضًا لديهم أوجه اختلاف. لديهم جن أسمر ولا يُسخر منه كما نحن. إلا أنهم لا يحبون الجن ذوي القرنين. فإن وُلد الجن من علاقة لم يقبلها الجن، فيولد الجنين بقرنين وشعر أسود وعينين حمراوتين.

وَلد هذا الثنائي طفلاً سموه (تَيْرَح) هذا الذي حيرني مدةً من الزمن، فلو قلبنا اسم (تيرح) يعطينا "حرية". إذًا، هل هي حركة مقصودة؟ كأن الطفل سيكون حراً في المستقبل؟ لكن ما أبعدني عن هذا الشك هو اسم ابنتهما، زوجة (تيرح). إذ إن قلبلنا إسمها لن يعطينا وصفاً يدل عليها.. فإسمها لا معنى له.. بل كانت من تصنع المعنى لنفسها.. كانت تُدعى بـ (رُثَعْدَنْ)..

ثَ : 1.5

ء تيانا ووصفها.. أسلوبها

كانت ذات ملامحٍ مسحورةٍ، كأنّها ظلٌّ انفلتَ من طيّات عالمٍ غابرٍ، يمشي بين الناس ولا يكاد يُرى قدمه على الأرض، كأنها لم تُخلق للعيش بينهم. كانت عيناها جمرتين متّقدتين، لا يشعّ منهما ضوء، بل تحرقان كلّ من تطاول بنظره إليهما. وكان أذناها طويلتين، كالنصلين، يُشِفُّ الضوءُ عنهما في فلكٍ لا يُطَاله، كأنّهما خنجرا الغيم في بُعد السماء.

كانت بشرتها شاحبةً، بيضاءً ليس فيها من نقاء، بل لَونٌ يوشك على الانطفاء، ونورٌ محاقٌ لا يجدي معه السكون. وشعرها، أسودٌ مظلمٌ، نادرٌ في الزمان، متموجٌ على كتفيها، يرفُّه النسيمُ فيُصَيِّحُ صمتًا، كأنّما يحمل بين خصلاته أسرارًا لا تُفشى.

كانت تكتسي السواد، لا كالذين اختاروه، بل كمن خُلِقَ منه، وكأنّ جسدها نُسِجَ من ليلٍ، وأطرافها سُطورٌ لظلٍّ لا صاحب له. كانت تمشي بين الناس، لا تسمع لها قدمٌ وقعًا، كأنّما الأرض لا تجرؤ على لمسها، أو كأنّها تُحاذر أن تترك أثرًا يُكتب عنها.

كانت الغموضَ أحيانًا، والجمالَ المخيفَ أحيانًا أخرى، وهي وحدها في عالمٍ لا يطؤه سواها.
أَلّفتُ أنا بِنْتُ السَّايِيَانِ، بَيْتَيْنِ يَنْضَحَانِ بِحُسْنِ التَّابِيَةِ العَفِيَّةِ:

السِّرُّ فيها مُكَمَّنٌ و هيَ رُتَعْدَنْ   ليلٌ تأبَّى أن يُفسِّرهُ الزَّمَنْ

إذا ما بَدا مِنها السَّنا مُتَوهِّجاً   تَهَدَّجَ قلبُ العالَمينَ وما سَكَنْ

يُقادنا القدر من رقابنا إن رضينا..

ويجرّنا إن أبينا.

قالها سانكا

وكتبها أنس وليس عِثيانا

فادنا وما حصل.. أسلوبي

أنا (فادِنا).. إمرأةٌ تحملت ما تحملته النساء من أوجاع وما لم يكن من نصيب الرجال أحيانًا.. تزوجت قبل عشر سنوات من رجل يدعى (صفوان).. كان يحمل في قلبه قوة العالم وضعف الطفل.. رزقنا بطفل سميناه (عمران).. الاسم الذي اختاره (صفوان) بنفسه.. أتذكر أنني سألته ذات ليلة.. بينما كنا نسهر على شرفة منزلنا المتواضع:

– أيُّ سرٍّ تخفيه عني.. صفوان.. في هذا الاسم؟ لِمَ اخترته دون غيره؟

لكنه.. وكعادته حين أطرق باب أسراره، أجابني وهو يصرف عينيه نحو القمر:

– يا فادِنا.. ما بالُكِ تُكثرين السؤال عمَّا في القلب؟ ما الاسم إلا هبةٌ جادت بها النفس!..

كان يغير مجرى الحديث دومًا.. يتحدث عن القمر أو رائحة الرياح القادمة من الحقول.. أقنعت نفسي بعد محاولات كثيرة أن السبب بسيط.. ربما كان يحب الاسم، أو ربما كان يحمل ذكرى لصديق قديم.. لكن شيئًا ما بداخلي ظل يتساءل.

لدي أخت.. كانت أقرب لي من الروح.. تزوجت قبل سنتين من احتفالنا بسبوع (عمران).. ولدت بعدها بأربع سنواتٍ فتاة جميلة أسمتها (زافِرّاء).. كبر أطفالنا معًا كالأشقاء.. يملؤون البيت ضجيجًا وضحكًا.. كنت أعتقد أن الحياة ستبقى هكذا.. مليئة بحبهم ودفء عائلتنا الصغيرة.. حتى جاءت أوامر الحاكم.. ذاك الذي نناديه بـ(الباشا).

قرر (الباشا) أن كل الذكور الذين تجاوزوا الخامسة عشرة ولا يتعدون الأربعين.. يجب أن يتجهزوا للمعسكر.. خبر نزل على قريتنا كالصاعقة.. كأننا نُساق إلى مصير مجهول.. طلب مني (صفوان) أن أجهز حقائبه ومؤونته للرحيل.. جهزت كل شيء.. لكن قلبي كان ثقيلًا.. مليئًا بالخوف والمرارة.. كيف سأعيش بدونه؟ كيف سأواجه العالم وأنا أحمل أعباءه وأعباء غيابه؟

في تلك الليلة الأخيرة قبل ذهابه.. جلسنا معًا في سرير غرفتنا.. وبدا في وجهه التعب.. لكن عينيه كانتا تحملان شيئًا مختلفًا.. شيئًا يشبه الوداع.. فك أزرار قميصه ببطء.. وقال بصوته العميق الذي طالما أشعرني بالأمان:

– يا فادِنا.. ما تقولين إن وهبتِني ولداً يَحملُ إسمي ويُخلّد ذكراي؟..

فوجئت بكلماته.. نظرت إليه، وكأن قلبي توقف للحظة.. كيف يمكن أن يفكر بطفل آخر ونحن على أعتاب الفقد؟ ابتعدت عنه بخجل ووضعت راحة يداي على وجهي كي أخفي احمراري. قلت له بصوت متردد:

– أيَّ جنونٍ هذا يا صفوان؟ أيُعقل أن أقدر على تربية صغيرين وحدي؟ إنَّ (عمران) صغيرٌ.. لا يزال في السادسة! كيف أعدل بين طفلين والزمان قد يطويك عني؟

لكني وقبل أن أُكمل كلامي.. باغتتني رغبة ملحة، شعور غريب ومندفع كأنني أخشى أن تضيع هذه الفرصة للأبد.. لا أعرف لماذا؟ لكني وجدت نفسي أقفز إلى حضنه.. أحتضنه بكل قوتي.. وكأنني أريد أن أترك شيئًا من روحي بداخله قبل أن يغادر. سقط من جلوسه، وضحك بخفة وقال:

– أنتِ يا فادِنا.. فيكِ من شهامة الرجال وشهوة النساء!

كانت تلك الليلة مختلفة، تحدثنا فيها كثيراً، كأنها كانت الوعد الأخير بيننا، أو ربما كانت البداية لشيء أكبر لا أدركه بعد..

******

ء تيانا والتاب والسابيان.. أسلوبي

ما خلفهُ الإنسي والجنية، سُمي بـ"التاب". كانوا يتميزون بشعرٍ أبيض أو أصفر أو حتى ناري، كانت أعينهم تلمع بلونٍ أخضر مميز، وأذانهم طويلة مدببة كأقماع.. لا تنموا إلا بعد بلوغ العاشرة من العمر وذاك سن البلوغ عند التيبان...

في البداية، كانت أعداد التاب ضئيلة جدًا، مما دفع بعض رؤساء الجن إلى التفكير في إبادة هذه القلة. ولكن، كالعادة، جاء وزيرٌ من الجن بفكرة غير تقليدية، جهنمية كما كانوا يصفونها. أراد أن يستفيد الجن من القدرات الاستثنائية التي يتمتع بها التاب. اصبر قليلاً، ما سأروي الآن ليس مجرد خيالٍ نسجتهُ في عقلي، فلا تغلق الكتاب. كل ما كتبته، سبق وأن حدث بالفعل، وأنا كالقرين الذي يتبع الشخص ويعرف عنه كل شيء، إلا أنني كنت قرين كل شخص في هذا العالم، فمعلوماتي أوسع مما تتصور.

المهم، قدرات التاب كانت استثنائية جدًا. كانوا أقوى من الجن العاديين، يتحملون المصاعب بشكل غير عادي، وينامون قليلًا، وهم أناس لا يتوقعون الراحة. نعم، استغل الجن هذه القدرات الفائقة، فصار التاب خدمًا لهم، حتى بدأ عددهم في الزيادة بشكل غير مسبوق. لكن، كل هذا كان يتم في الخفاء، إذ لم يكن الإنس يعلمون شيئًا عن هؤلاء الكائنات. وكان الجن قد أغلقوا باب الجدار العظيم، حتى لو اكتشف الإنس شيئًا عن التاب، لكانت قد نشبت حربًا أشد وأكثر ضراوة مما كانت عليه العداوة بين الإنس والجن..

ثم جاء عهد الطوفان، حيث كان أغلب الجن والإنس في ذلك الزمن كفارًا، فغرقوا جميعًا. لكن التاب تمكّنوا من الصعود إلى السفينة، وكان عددهم يتجاوز المائتين، أما الجن، فلم يكن منهم سوى قلة قليلة جدًا. تروي بعض الروايات أنهم كانوا عشرين، بينما تقول روايات أخرى أنهم كانوا عشرة فقط. أما الإنس، فكانوا بنفس العدد تقريبًا، وكانوا من أفضل البشر، والأكثر صدقًا وإيمانًا..

في السفينة، اجتمع جميع الأجناس سويا، ولم يسخر أحدٌ من الآخر. الجميع كان تحت راية واحدة: "الله أكبر". وفي تلك اللحظة، تفاجأ الإنس حين استمعوا إلى قصة التاب، كيف نشأوا وأصبحوا جزءًا من هذا المزيج العظيم. وبالتأكيد، كانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة التي يتناقش فيها الجن والإنس معًا، حيث كان الجميع يعبر عن آراءه بحرية، دون خوف أو كراهية. أما التاب، فقد اختاروا (رُثَعْدَنْ) لتكون قادتهم، واتخذت قرارًا مع رئيس البشر أن يغيروا اسمهم. كان لدى (رُثَعْدَنْ) فكرة جريئة، أرادت أن تُسمّي الإنس بـ"السابيان" وقالت لهُ أن التاب يخافون من الجن والجن يتحدثون عن الإنس وعن ضراوتهم.. إذاً فالتاب يخاف بشدةٍ من الإنس.. فقررت (رُثَعْدَنْ) أن توهم التاب بأن هؤلاء القوم الذين يركبون معهم في السفينة ليسوا بشراً، كونهم لم يروا البشر يوماً ما كان من السهل خداع التاب فأسمت الإنس بالسابيان، وبذلك سُمّي الإنس بهذا الإسم، ليظن التاب أنهم مجرد قوم طيبين لا يحملون أي تهديد لهم. هذه الخدعة أدت إلى خلق شرارة الحرب بين الأجناس المختلفة، وبدء صراعٍ كان من الممكن تجنبه..

******

رحل عني زوجي تاركاً في قلبي وحشةً لا تندمل.. كنتُ أبكي حينها بحرقة.. لكن بكائي خفّ شيئًا فشيئًا حينما عرفتُ أني حامل.. فذات يومٍ اشتدّت الحمى عليّ حتى صارت كالنار تأكل

جسدي.. فما كان من ولدي (عمران) إلا أن أسرع ليبحث لي عن طبيب.. حاول أن يحملني على ظهره.. لكنه كان يسقطني في كل مرةٍ أراد ذلك.. فاستنجد بأحد أصدقائه.. رغم عمره الذي يقتربُ من عمرِ ولدي إلا أنه كان قوياً ذا بنية عظيمة.. فجاءا معًا وحملاني حتى بلغنا بيتًا طينياً لا يشبه بيوتنا الخشبية.

أدخلني (عمران) إلى حجرة الطبيب بعد أن استأذن منه.. ثم انصرف صديقه بعد أن شكره (عمران) بلسانٍ طيب.. رغم الحمى التي أنهكتني.. كنتُ أبتسم بفخر.. فأنا أرى ولدي يتعامل مع الناس بأخلاقٍ كريمة.. وأي أمٍ لا تسعد برؤية ابنها يعامل الناس برفقٍ وحسن خُلق؟ كان الطبيب شيخًا عجوزًا.. حليق اللحية وله شاربٌ كثّ يعلو شفته العليا.. على رأسه طاقية بنية اللون بالية الأطراف.. اقترب مني وفحصني بعينين متفحصتين.. ثم قال بصوتٍ غليظ ولهجةٍ متعجرفة:

– ويحكِ.. أيتها الفتاة.. قد أصابتك الحمى.. لكني أرى فيك أثراً من شرٍّ جرى.. فلعلكِ دنوتِ من رجلٍ أفسدكِ؟ أمًّا وزوجتي.. إن بنات هذا الزمن لهنَّ أسرع للهوى من الريح في مرساها"!

صُدمتُ من قوله.. لا.. إني كنتُ سعيدة للغاية.. فحينها عرفتُ أني حامل، إلا أن ذلك العجوز إتهمني بالرذيلة.. إنه مسّ بالجرح الحساس.. فقلت له بنبرة حازمةٍ:

– أيها الشيخ.. ما أنت إلا متطفلٌ على شأنٍ ليس لك به علم!.. أقسم بصفوان ما اقترفتُ رذيلةً قط.. وهذا الذي في بطني هو ابن زوجي.. فاحفظ لسانك لئلا أقطعه بردٍّ يصيبك بالندم!..

وأشرتُ نحو (عمران) الذي كان يقف مستندًا على الجدار خلفي كأنه عمودٌ صلبٌ يحرسني.. حينها بدت علامات التردد على وجه الشيخ.. فقال وهو يحاول التراجع عن موقفه:

– ما أردتُ إلا خيرًا.. فلا تثريب عليّ.. قد انتهى وقتكم عندي.. فانصرفوا على بركة الإله

لكن.. وقبل أن نغادر المكان.. نظر إليّ عمران بنظرةٍ يعلوها التساؤل وقال إنّ الطبيب لم يُعطنا الدواء.. فشعرتُ بخيبةٍ تسللت إلى ملامحه الصغيرة.. اقتربتُ منه وقرصتُ وجنته برفقٍ لأطمئنه.. وقلت له إننا سنبحث عن طبيبٍ آخر لعلّه يكون خيرًا من الأول.. ابتسم حين سمع كلماتي.. وركض نحو جماعةٍ من أقرانه الذين كانوا يتقافزون حول شجرةٍ عجوز.. لم يمضِ طويلُ وقتٍ حتى عاد إليّ ومعه اثنان منهم.. وحملوني هم الثلاثة - ببراءتهم التي أنستني ألمي - إلى طبيبٍ آخر كان بيته لا يختلف عن بيوت العامة.. بسيطًا في هيئته ومريحًا للعين..

هناك استقبلنا طبيبٌ شابٌ لم يتجاوز الثلاثين من عمره.. فحصني بعنايةٍ وطمأنني قائلاً إن الحمى التي أعانيها ما هي إلا أثرٌ جانبي لحملٍ جديد لم أكن على درايةٍ به.. شعرتُ بدهشةٍ غلبت على ملامحي.. بينما أشار عليّ أن أزوره مرةً كل أسبوعين للاطمئنان.. لم ينسَ أن يقدّم لي دواءً بلطفٍ شديد لعلاج الحمى.. وعندما هممتُ بالخروج قلت في نفسي:

<< هؤلاء هم خير الناس وإلا فلا >>

عدتُ إلى البيت مع عمران.. وقد كان قلبه الصغير يفيض فرحًا وهو يركض نحو زافرّاء ليلعب معها.. بينما دخلتُ المنزل لأجد أختي جالسةً على الأريكة في وضعٍ لم أعهده منها.. كانت تضع كفيها على فخذيها.. وتنظر نحو الأرض بنظراتٍ فارغة.. حاولتُ أن أتبين سبب حالتها الغريبة.. فاقتربتُ منها وقلت لها:

– ما الذي أصابكِ يا أختاه؟ ماذا جرى لكِ؟ أسأل الإله أن يكون الخبر خيرًا على الرغم من كل شي..

رفعت رأسها نحوي ببطء.. وعيناها تغرقان في بحرٍ من الحزن والدموع.. وقالت:

– يا فادِنا.. قد هلكت عائلتنا بأسرها!.. أمُّنا وأبانا.. وحتى الخادمةَ.. كلهم قد وُلدوا من الدنيا وراحوا..

حين سمعتُ كلماتها شعرتُ بثقلٍ يجثم على صدري.. وكأن الكون ضاق من حولي.. وقبل أن أُدرك ما كان يحدث.. فتحت أختي ثوبها قليلاً لتُظهر جرحًا غائرًا يمتدّ عرض كتفها.. ثم قالت بصوتٍ متقطع وهي تبكي بحرقة:

– إنه زوجكِ يا فادِنا.. رأيته بعينيّ.. هو من قتل أمكِ بلا رحمة ولا شفقة!

لم أستطع تحمل وقع كلماتها خصوصًا حينما ذُكر زوجي.. وسقطتُ على الأرض في حالةٍ بين الإغماء والوعي.. وأخذتُ أتقيأ من شدّة الصدمة.. وعندما استفقتُ كنت أصرخ كالمجنونة.. فهرع إليّ عمران.. وقف بجانبي وهو يسأل بلهفةٍ طفولية إن كان كابوسًا.. لكني هدأتهُ بيدٍ مرتعشةٍ قائلةً بصوتٍ مخنوق:

– لا تخف يا بني.. ما بي إلا تعبٌ.. فدعني وحدي في سكوني هذا.

غادر عمران المكان بعد أن لبّى طلبي.. بينما دخلت أختي وجلست على حافة السرير.. وقد كانت قدماها متدليتين.. همّت لإغلاق الباب وعادت لتجلس بنفس الطريقة.. نظرت إليها بعينين تملؤهما الحيرة وقلت لها:

– ما كان هذا الحق يا أختاه.. كيف تموت عائلتي؟!.. إن أبي وزيرٌ ذو شأن في بلادنا.. أليس كذلك؟.. كيف لصفوان أن يكون له يدٌ في هلاكنا؟.. لقد ضلّت عيناكِ يا أختاه.. فما رأيتِ إلا ما لم يكن!..

أخذتُ أبكي بحرقة وأنا أردد كلمات "لا يمكن".. فالتفتت إليّ أختي ببطء وقالت:

– أترينني عمياء لا أبصر؟!.. رأيته بعينيّ.. إنه صفوان.. زوجكِ.. كان في قلبه جرحٌ على أبيكِ.. فاغتنم الفرصة ونفذ غدره بدمٍ بارد..

برهان توأمي.. عتيانا

مرت أعوامٌ كثيرة.. رحلت (رُثَعْدَنْ) وانقرض الجن، أو هكذا قيل. لكنني لم أستطع تقبّل فكرة اختفائهم، لذا ألّفتُ كتابًا طرحتُ فيه فرضية تقول أن الجن لم يختفوا تمامًا، بل ذهبوا إلى عالمٍ موازٍ يعيشون فيه بيننا، لكننا لا نستطيع رؤيتهم، وفي مرحلة ما من حياتي، كنت مقتنعةً تمامًا بهذه الفرضية، لكن هذا ليس مهمًا الآن.

كما لو أن العالم يعيد نفسه، انقسم من جديد إلى شطرين، كما كان الحال قديمًا. بُني سورٌ عظيمٌ، وأطلقوا عليه اسم "الجدار العظيم". كل شيء أُعيد تشكيله كما كان، ولكن بدلًا من الجن، حلّ التاب، وبدلًا من الإنس، ظهر السابيان. لكن هذه المرة، لم يتقبل الطرفان فكرة المقايضة كما فعل أسلافهم، لم يكن هناك سوقٌ للعبيد ولا مساوماتٌ سرّية، كان هناك صراعٌ صريح، وتصادمٌ لا مفرّ منه.

وقبل ولادتي بعشر سنوات، اشتعلت الحرب مجددًا، حربٌ أهلية مزّقت أرض التاب. استمر القتال سنوات طويلة، حتى ذلك العام الذي ولدتُ فيه، حين وضعت الحرب أوزارها أخيرًا، ووافق التاب على هدنة. لكن، بالكاد مرّت لحظات السلام الأولى، حتى اقتحم السابيان أراضي التاب، واحتجزوا ولية عهدهم. كان قومي أذكياء، استغلوا ضعف التاب وانشغالهم بالحرب الأهلية، واستولوا على أجزاءٍ من أراضيهم.. لكن التاب، بعد أن ذاقوا مرارة الاستعباد، بنوا جدارًا آخر يحميهم من بطش السابيان. وما زالت العداوة قائمة حتى يومنا هذا، كأنها لعنةٌ أبدية لا مفر منها. فلا بد من الحروب كي تستمر الموازنة في العالم.. كما لو أننا قتلنا جلّ الفئران، فحينها ستكثر الجرذان ويعمّ الخراب. وهكذا هو عالمنا، حيث كل قومٍ

يفرض حكمه على الأقوام الأخرى، وحيث لا يعيش أحدٌ دون أن يكون جزءًا من لعبة السيطرة والبقاء..

عندما بلغت العاشرة، كانت أختي الصغرى في الثامنة. نشأتُ في عائلةٍ ميسورة، حيث لم ينقصني شيء، حتى أتممت السابعة عشرة وتزوجت.. حينما قلتُ إنني لا أتذكر متى تزوجت كنت صادقةً، فقد غاب ذلك عن ذهني عندما كنت أكتب تلك الجزئية. لكن مع كل سطرٍ أكتبه، تغوص ذاكرتي أعمق، فتبدأ بعض التفاصيل بالظهور..

كانت وما زالت تُروى حكاية التاب والسابيان، حيث كان التاب امتدادًا لما كان يُعرف بالجن، والسابيان صورةً أخرى للإنس. التاريخ يعيد نفسه، بنفس الصراع، بنفس الحواجز، لكنه هذه المرة يُكتب بيدي... فأنا الرواية، ولستُ مجرد بطلتها..

أخت فادنا وما جرى.. أسلوبي

كانت السماء ملونة بزرقة مسوّدة.. تتخللها النجوم كأنها درر مبثوثة في لوحة فنية عظيمة. لكني لم أرَ القمر آنذاك.. ولا أدري حتى الآن ما السبب. وصلت مع إبنتي إلى دار والدي بعد رحلةٍ مضنيةٍ.. فاستقبلني أبي عند الباب الحديدي الضخم.. عيناه قاسيتان وثيابه واسعة تنسدل عليه في هيبة وقال بصوت جاد:

– مالي لا أرى معكِ فادِنا يا عِثْيانا ؟..

فأجبتُ وأنا أصعد الدرجات بوقار مُمسكةً بيدِ إبنتي:

– ومن يُربي إبنها إن أتت عندكَ.. وأنا أعرف أنك لن تدع إبنها يلمس أرضية منزلكَ.. أين أمي ؟

فقالَ بعدها وهو يحركُ يديه ليمسكها خلف ظهرهِ:

– ستطرأ حرب في بلادنا ، وقريتكم ستغدو رماداً بعد أربع سنين أو يزيد. كان على فادِنا أن تأتي.. ففي دارنا المأمن.

<< لقد ولى عهدُ الحروب يا أبتي >>

فقُلتُ له بعد أن تركتُ (زافِرّاء) منشغلةً بسياجِ تلك السلمات المزخرف..:

– إني أخشى على أختي الصغيرة فلن أطيل المُقام في داركم.. لقد اشتدّ الحنين إلى أمي... أما أنت، فليُصِبْكَ غضبُ الآلهة ولعنتهم!

هممتُ صاعدةً السُّلم وأمسكتُ بابنتي وحملتها بين ذراعي.. ثم دفعتُ الباب ببطءٍ لأنفذَ إلى الداخل. ولكن قبل أن أخطو خطوةً واحدة.. دوى صوتُ أبي قائلاً:

– إنّ زوج فادِنا لم يمضِ إلى معسكر القوم، بل ولّى هاربًا إلى حيث لا يعلمُ أحدٌ مكانَه. وكما تعلمين، فإن فعلته هذه قد تُهلكُ أهله وتُوردهم مورد الفناء.. فلا بُدَّ لفادِنا أن تأتينا طائعةً وتُسلّم ابنَها لدورِ اليتامى ليكونوا له كافلين..

فقُلتُ وأنا أنظرُ في عينيه القاسيتين:

– "ما ذنبُ غلامِها لتُنزِل به هذا الغِلظَ والجفاء؟ هو أصغرُ منك بنصف عُمرٍ يا هذا، أتراكَ شيخًا وما زال عقلُك في حداثةِ الفِتيان؟!"

لكنه قال بعدها.. وعلى غير عادته في التأخّر بالإجابة، بصوتٍ خافتٍ بالكاد تمكنتُ من سماعه:

– إني أفعلُ هذا لحمايتها..

أضاف متمتمًا.. ولم أتمكن من سماعه تمامًا حتى همّ مغادرًا إلى الباحة ليبحث عن بعض الزهور.. وكان هذا ما لم أفهمه في أبي حتى الآن. دخلتُ المنزل واستقبلتني خادمةٌ هناك.. لا أذكر اسمها، لكني أتذكر أنها كانت رئيسة للخدم آنذاك. سلمتُ عليها ورافقتني إلى حيث كانت والدتي نائمة.. تلك التي كانت في الفراش تتصبب عرقًا من شدة الألم. صلعاء.. ولا أدري لماذا منذ أصيبت بذلك المرض.. لكنّ أحد الأطباء، الذي لا نعرف أصله وكان يلبس لباسًا غريبًا،

قال إن أمي مصابة بـ"السرطان". دخلتُ غرفتها ذات الباب الخشبي والأضواء الزيتية.. غرفة ضيقة أغضبتني. جلستُ على حافة سريرها أحتسي بعض الشاي الأخضر الذي أحضرته (الخادمة).. ولكن، وعندما ارتشفتُ المرة الثالثة، بدأ السعال يشتدُّ عليّ حتى جاءت (الخادمة) مهرولة وأعطتني منديلاً.. لم أشكرها، بل نظرتُ في عينيها بنظرات حادة.. فقد كنتُ أظن أنها من وضعت شيئًا في هذا الشاي..

حينئذٍ رفعتْ أمي يدها ببطء.. كأنما تُصارعُ ضعفًا قد نهشها حتى النخاع.. فاهتزّ قلبي لرؤيتها على تلك الحال.. وامتلأت عينيّ بدمعٍ لم أشعر به وهو ينحدر على خديّ.. لقد كانت تحاول رغم وهنها أن تُثبت لي أنها ما زالت تدرك حضوري.. ما زالت تبصرني بعينٍ أنهكها المرض.

تحرّكت شفتاها بحركة بالكاد تُرى.. وصدر عنها صوتٌ ضعيف.. كأنّه أنفاس الريح في ليلةٍ ساكنة.. فقالت بصوتٍ خافتٍ متقطّع.. يُكاد لا يُسمع:

– عِثيـ..ـانا.. أيـ..ـن فـ..ـادِنـ..ـا؟..

وضعْتُ يدي على صدرها برفق.. كأنما أواسيها وأواسي نفسي.. وقلتُ بصوتٍ هادئ:

– استريحي يا أمّاه.. فما لكِ إلا الراحةُ بعد هذا العناء.

ثم التفتُّ إلى الخادمةِ التي كانت واقفةً عند الباب.. صامتةً كأنها تخشى أن تنبسَ ببنت شفة.. نظرتُ إليها بعينٍ لم أُخفِ فيها حدّةَ السؤال.. فقلتُ بلهجةٍ لا تخلو من الغضب:

– لمَ جعلتم أمي في هذه الغرفة الضيقة.. أهذا من فعلكِ؟!

خفضت رأسها في وجل.. كأنها تحاول الفرار من عينيّ.. وقالت بصوتٍ خفيضٍ لا يكاد يُسمع:

– سيدي هو من أمرني..

تصلّب وجهي.. وسرى الغضب في عروقي.. ثم نطقتُ باسمٍ ما كنتُ أتصوّر أن أحتاج إلى قوله في مثل هذا المقام:

– أبي..!؟

كنتُ أعلم أن أبي، رغم كراهيته لفادنا وزوجها، إلا أنه يحب أمي.. لذلك كان من الغريب أن يحدث هذا.. اندفعت لمكانه بخطوات مسرعة، لكن.. في رواق المنزل لمحت زافرّاء تدخل غرفة.. خفق قلبي خوفًا عليها، فتبعْتُها.. وما إن اجترتُ العتبة حتى وقعت عيناي على مشهد لم يخطر لي في أسوأ كوابيسي.. كان زوج فادنا ممسكًا بسكين، يضعه عند عنق ابنتي، وعيناه تقدحان بنظرة غريبة.. هممتُ بالصراخ، لكن قطرة دم رقيقة انسابت من رقبة زافرّاء إثر تماسها مع شفرة السكين.. فتجمّد صوتي في حلقي.

قال بهدوء لا يناسب فظاعة المشهد:

– عتيانا.. فقط إصمتي..

– لكن إبنتي!!.. قُلتها وأنا أبكي بحرقةٍ..

كانت عيناه تلمعان بدموع لم أفهم سببها، لكني لم أذكر ذلك لفادنا أبدًا.. ثم فجأة، سحب خنجرًا من خلف ظهره وقذفه نحوي.. لم أدرِ إن كان يريد تخويفي أم قتلي، لكنه أصاب كتفي، وتركت الضربة جرحًا لم يندمل حتى الآن.. قبل أن يفرّ، قال بصوت ثابت:

– عندما تعودين.. أخبري فادنا أن تهرب من هذه البلاد الظالمة.. قولي لها أن تذهب إلى موطني..

– لكن، ماذا فعلت لك زافرّاء..؟

ابتسم.. لم أدرِ إن كانت ابتسامته ساخرة أم خبيثة أم كان يحاول طمأنتي.. لكنه أخفف قبضته عن (زافرّاء).. كانت تبكي بصوت خافت، كأنها تحاول ألّا تُصدر أي صوت حتى لا يقتلها.. راقبتُها بعيني وهي تهوي أرضًا، ثم تنهض بخطوات خاطفة وتهرب خارج الغرفة.. للحظة، استغربت من تصرفها، لكنها جعلتني أوقن أنها عبقرية.. فهمتُ أنها ذهبت لتستنجد بأحد.. لكن صفوان لم يُعطها الفرصة.. تبعها بسرعة، أمسك بها، ثم عاد بها إلى مكاني حيث كنت ساقطة على الأرض.

نظر إليّ بعينين باردتين، وقال بصوت خالٍ من التردد:

– أمكِ تظهر الضعف، لكنها ليست إلا امرأة خدعتكم جميعًا.. خادمتها تعينها على ذلك.. تستغل مكانة زوجها لتحقق أمانيها، وحين تنتهي منه ستتخلص منه.. أنا هنا لأقتلها وأقتل خادمتها.. ذلك الشاي الأخضر، من صُنع الخادمة.. وضعت فيه سُمًا سيجعل جسدك يتخدر بعد قليل.. أما أبوكِ، فهو خير الناس.. و..

وقبل أن يكمل حديثه، اخترق الهواء خنجر مندفع بسرعة صوبه.. كاد يصيبه، لكنه تفاداه في اللحظة الأخيرة، فلم يمسّه سوى طرفه، تاركًا جرحًا على أنفه.. كُسر زجاج النافذة بقوة، واقتحم الغرفة رجل آخر.. كان أشقر الشعر، ذو لحية خفيفة، يرتدي لباسًا بسيطًا على عكس صفوان، الذي كان يلبس زيًا عسكريًا.. على عنقه رسمٌ غريب، لم أكن أعرفه آنذاك، لكني أدركت حقيقته بعدها.. كان وشمهُ على شكلِ خريطة لأرضٍ مختلفةٍ عنّا.. إذ يسمّون بـ (التّابْ).. عالم محصورٌ بين جبالِ الشمال.. حيثُ لا يرون الشمس إلا مرةً في العام.. كُتبَ على بوابة تلك الأرض:

<< لِأَرضٍ تُصِيخُ الأُذُنُ الطُّولُ سَمْعُهَا   كَـأَنَّ صَخَاهـا لِلمَقـالِ مَنَـارُ >>

<< وعَيَنٌ كَمَرْجِ العَيْنِ تَخْضَرُّ حُـسْـنُها   وَشَعرٌ كَضَوْءِ الفَجْرِ بَيْضٌ ونَـارُ >>

<< فَمَنْ جَحْمَسَ اللَّونِ الدَّجِيُّ بِنَاصِيِهِ   فَذاكَ التَّـابِيُّ الْمُظْلِمُ المُستَعـارُ >>

فقال الرجل الأشقر لصفوان كلمات لم أستطع فهمها، لكنها ظلت عالقة في ذهني، حفظتها جيدًا رغم صعوبة الفهم..

– (وَاهْيَا.. تَّا مالك ما صْـفِيتِيـهَا لْهاش؟)

كان واضحًا من طريقة نطقه أنه سؤال، ولكن ما كان يقصده، ما زلت لا أستطيع إدراكه.. صمتَ قليلاً، ثم رفع سبابته وكأنما اهتدى إلى جواب، وقال كمن يفسر أمرًا مُبهمًا:

– (آه.. عاد طلعات معايا .. كاتْنْوِّيها.. مْغْوِّلْ تْخْلِّيهَا مْعْلّْقَا.. من بعد غاتقتلها ياك)

فهمت حينها أن صفوان ينوي قتلي.. فما خطر ببالي في تلك اللحظة هو أن "من بعد غاتقتلها" تعني بعد قليل سيزهق روحي.. عندها استنتجت أن هذا الرجل يتحدث بالعربية ولكنها محرفة، أستطيع أن ألتقط الفكرة، لكنني لم أستطع فهم كل تفاصيل الكلام.. ثم نظر صفوان في الرجل الأشقر بنظرات حادة ومرت عن شفتيه كلمات لم تخلُ من تهديد، كأنما يهدد بفعلة لا تراجع عنها:

– وما شأنُكَ بنا؟.. أنسيتَ غايتَنا أم غلبَتْكَ شطاطتُك؟ ما زلتَ تلقي بنفسِكَ فيما لا يعنيك، وكأني عبدك.. ويحَكَ.. أما آنَ لكَ أن ترعوي؟

لكن وفجأة.. وكأنما انقضّ عليه كالنمر، تقدم الرجل الأشقر بسرعة خاطفة.. وأوقع صفوان على الأرض بضربةٍ قاضية ثم نظر إليه بنظراتٍ مليئةٍ بالاستفزاز وكأن صفوان لا شيء في عينيه.. ثم بدأ بالكلام، وفيه نبرة سخرية واضح:

– (وا السّايْيانِي..صحابليك واش ضاحكين هنا ولا كيفاش.. تا سير قلب الروايد أولد الغْبد راك كنتي منا.. وليني جبداتك ديك الدرية وتزوجتيها.. ماولتيش منا دابا أدّا حمادْ)

فهدأ قليلاً.. ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامةٌ غامضةٌ، وعيناه تومضان بنظرةٍ عميقةٍ يكتنفها الغموض.. حدّق في وجهي مليّاً قبل أن يدنو مني، ثم قال بصوتٍ خفيضٍ.. لكنه كان أشبه بهديرٍ خافتٍ يسبق العاصفة:

– إني أريدُ عينيكِ.. وقلبَكِ.. وأشتهي أن تلمسَ يدُكِ يدي.. وأن تقرّ شفاهُكِ على شفاهي.. بل أريدُكِ كلّكِ، لا أتركُ منكِ عضواً ولا معنًى..

تلك اللحظة.. شعرتُ بأن قلبي يخفق بعنفٍ حتى خِلته سينتزعُ أضلعي ليهرب من بين جنبيّ.. جفّ ريقي، وانتابني شعورٌ مرعبٌ جعلني كطفلٍ مقيدٍ بين مخالب وحشٍ كاسر.. أقسمُ أني كدتُ أبللُ سروالي، ولم يكن في وسعي أن أمنع ذلك.. أما ابنتي، فقد كانت تتشبثُ بي بذراعين مرتجفتين، وكأنها تستجيرُ بي من الموت ذاته.. حتى وقعت عيناها على الدماء التي انحدرت من كتفي وغابت عن الوعي وسقطت بين ذراعيّ كزهرةٍ ذابلة.. أما أنا، فخرجت مني الكلمات كمن ينطق بها رغم إرادته:

– إن كان هذا ما تبغيه.. فإني لباغيته.. غير أن لا تمسَّ ابنتي..

عندها، حوّل نظره إلى (صفوان)، واتّسعت ابتسامته في سخريةٍ ملؤها الغطرسة.. كان مسيطراً، بل لم يكن في حاجةٍ إلى فرض سيطرته، فقد كان كأنما نسجَ الخيوطَ كلها، وحاك المشهدَ كما يشاء.. فقال بلهجتهِ التي لم أفهمها..:

– (أرا لي شي كاتورزا.. نْوَرّي لَدين مْها شنا هِيّا الرومانسية)

ثم ضحك ضحكةً خافتةً، وراح يفرك يديه كمن ينتظر لحظةً بعينها منذ زمنٍ بعيدٍ:

– سنبدأ بقطع يديكِ.. ثم فقءِ عينيكِ.. ثم سلّ شفتيكِ من مكانها.. ثم أُعمل فيكِ السيف حتى يتشظى قلبكِ بين يديّ.. فلا تخافي.. فلستُ بتاركِ قلبكِ وحده.. سأظل معهُ حتى الأبد..

كاد (صفوان) أن ينتفض من مكانه، لكن أبي ظهر أخيراً، ليضع حداً لهذه المهزلة قبل أن تنفلت عن السيطرة..

ما سأرويه الآن يعجزُ اللسانُ عن وصفه.. لكن السؤال هنا.. هل تمتلكُ عقلاً ومخيلةً واسعةً تستطيعُ بها تصوّر ما سأصفه؟.. حقًا.. أرجو ذلك..

أظنّ أن أبي قدِمَ صدفةً.. إذ كانت باحة المنزل قُربَ الباب الرئيسي.. ونحن في مؤخرته.. كان في يده سيفٌ.. تلامس مقدمته الأرض وكلما تحرّكَ أبي، كان احتكاكُ السيف بالأرض يُحدثُ صوتًا مزعجًا.. فقالَ أبي بجديةٍ وهو ينظرُ إلى الدماء المتدفقةِ من كتفي..:

– ..ماذا جرى؟..

ثم أبعدَ نظرهُ عني والتفتَ إلى الرجل الأشقر قائلًا:

– أأنت من آذى ابنتي؟..

إلا أن نظرته تبدلت حالما رأى (صفوان).. التفتُّ نحو الأخير.. فرأيتُ ملامحه تتغير.. كمن يتردد في طلبِ الزواجِ من حبيبتهِ.. لكنّ من كان يسيطرُ على المشهد كان(الرجل الأشقر).. راح يُدير رأسه تارةً إلى صفوان.. وتارةً إلى أبي.. حتى استقرَّ بصرهُ على أبي قائلًا بلهجةٍ ركيكة..:

– لا أعرفُ ما تهدر عنه.. ولَايْنّي.. هل هذه المرأةُ بَنتك؟.. إن كانت بنتك.. فبغيتُ الزواجَ بها..

ثم أدارَ رأسهُ إلى صفوان وقال:

– (وا المهدي.. ما جاوبتينيش.. قول لهاد بنادم.. أنا غا عروبي)

تقدّم (صفوان) ووضع يده على كتف الآخر.. ثم همس في أذنه.. بدأت ملامح (الأشقر) تتغير.. وظهر الغضب في وجهه.. كاد يُغمى عليَّ من الرعب الذي أصابني.. عيناه وحدهما تأخذانك وتمتصانك إلى عالمٍ آخر.. وكأنهما تُجردانك من وجودك.. ذلك ما قرأتهُ في كتابٍ بعدَ هذه الأحداث.. كان عنوانه "الانتقام".. وكأني قتلتُ والدتهُ أو عائلتهُ.. نظرةٌ يراني بها ويرى بها والدي وكأننا مجرّدُ قذارةٍ عالقةٍ في حذائه.. ثم وجّه بصره إلى صفوان وهو يقول..:

– يامن نُسبتَ إلى نسلِهم فانغمرتَ فيهم، وما يَفصِلُكَ عنهم إلّا عرضُ خِنصرٍ واهٍ.. أما زِلتَ تجهلُ أمراً كان في التّابِ محظوراً؟ أَغَفَلتَ عن نَهيٍ لا يُنكَرُ ولا يُنسى؟ كيف لكَ أن تألَفَ إنسيّةً وهي منك دُونٌ وأنتَ منها غريبٌ؟أما كنتَ لي رفيقاً، حتى ضاقَ بي الحَرَجُ من رؤياكَ تَشرَكُها؟ أما زِلتَ تُداري خطيئتكَ خلفَ جَهلٍ مُتعمَّد؟ أوَلم تَسمَعْ كيفَ انبَرَتْ عن مَن كانَ

لي منهم صُلْباً؟ ذنبُ من إن لم يَكن ذَنبَك؟إنَّ السّابيانَ هُمُ من طَحَنُوا أُسرتي، وأسروا حبيبتي.. فكيف تَسوغُ لنفسِكَ مَهادَتَهم؟ كيف لكَ، كيف لكَ يا صفوان.. بعدَ ميثاقِ العِشْرةِ، أن تَميلَ لامرأةٍ من بَني الطِّينِ.. من لا يَبلُغُ جوهرُها ما بلَغتْهُ أنفاسُنا؟

كانت تعابير صفوان تتغيرُ مع كلِّ كلمةٍ يتفوّه بها الأشقر.. وكادت عيناه تدمعان.. فمسح إحداهما بكفِّه.. بينما كان الأشقر يرمي إليَّ وإلى أبي بنظرةٍ ملؤها الغضب.. ثم قال..:

– لقد انتهيتُ من دعاباتِ نفسي التي أكرهها..

مدَّ يدهُ إلى صفوان.. هذا الأخير الذي حينما تكلّم الأشقر.. كان يعتدلُ في وقفته وكأن الأشقرَ ذو شأنٍ عظيم.. أعطاه سيفًا أخرجه من خلفِ ظهره.. وهو يقول..:

– إنّ فادِنا كانتْ ولا زالتْ ما أعشقه.. فلا تحرمني منها يا تَيْرَحْ

(تيرح) وهو يقبض على مقبض السيف، وعيناه تقدحان شرراً:

– أفٍّ لكَ.. وأفٍّ لفادِنا.. وأفٍّ للسِّبيانِ.. وأفٍّ للتَّابِ.. وأفٍّ لأهلي.. وأفٍّ لـرُ..

(صفوانٌ) وهوّ يربت على كتفه.. بصوتٍ هادئٍ حازمٍ:

– إلا هي.. قد أعلمُ أنك بلغتَ من الضيقِ مبلغاً لا يسعُك الصبرُ معه.. ولكن لولاها، ما كنتَ الآن ها هنا..

في تلك اللحظةِ.. أمسكَ أبي بذراعي، والتفتَ إليهم كأنما يردُّ عني سهامَ المصير.. قال بصوتٍ هدرَ كهديرِ العاصفة:

– عليّ، ولا تمسّوا هذه الفتاة.. أعلمُ أنكم من التّاب، لكنكم بشرٌ، ولستم تيبان.. أفلا فيكم من الإنسانيةِ شيءٌ يدع هذه المسكينة تفرُّ سالمةً بابنتها؟ إرأفوا بها.. أقسمُ بها أني لن أريق دماءكم إن أنتم تركتموها..

تفاجأتُ من أبي.. لم أعهدْهُ من قبلُ هكذا.. فقطعَ حبلَ أفكاري.. (تيرح) وقد جالَ بنظرهِ في عيني، كأنما يمسكُ نفسهُ عن قتلي، ثم قال بصوتٍ ثقيلٍ، كوقعِ الحديدِ على الحديد:

– ماذا تفوهتَ بهِ.. يا سابيانيّ؟!

ساد الصمت، لكنه لم يكن صمتًا مريحًا.. بل كان ثقيلًا، محمّلًا بالغضبِ والكراهية. رمقه بنظرةٍ لا تخلو من ازدراء، ثم أضاف بصوتٍ خافت يرتفع تدريجياً:

– أتظنّ أن التاب وحوشٌ بلا رحمة؟.. أتظنّهم يقتاتون على الجيف؟ يطاردون المختلف ليقتلوه؟ أم تراك تتحدث عن أنفسكم؟. لو رأيتم تابيةً، لكنتم أول من ينهشها، ثم تزهقون روحها كما تفعلون بكل شيء لا يشبهكم!

كنتُ أظن أن صوته العالي هو أعلى ما قد تصلُ له حنجرته.. لكن، إنه وحش.. يصرخ بصوتٍ مرتفعٍ حتى صار وجهه أحمراً من كثر الوقت الذي لم يتنفس فيه..:

– فيا من يدّعي انتسابي إليه، ولا أجد فيك شبهاً لي!..

قالها بصوتٍ مرتفع، مملوء بالغضب والحقد، وكأن الكلمات نفسها كانت تطعن في قلبه.

– هل تفهم الآن معنى الإنسانية؟ أم أنك أعمى عن كل شيء إلا عن غرورك؟

ما إن سكت، حتى عمّ الصمت المكان كأن الأنفاس كلها توقفت لحظة واحدة، وفي تلك اللحظة، ارتسمت على وجه (صفوان) نظرة لا تشبه نظراته السابقة، التي كانت مليئة بالخوف والارتباك. تحولت عينيه إلى جمرتين متقدتين، ورفع رأسه، وأخرج كلماته ببطءٍ، مشدودةٍ بصدقٍ وحسم:

– يا عمي.. إني لا أبتغي لك إلا الخير.

لكن كلماته لم تكن مجرد محاولة للتخفيف، كانت تحمل ثقل الحقيقة التي لم يعد بالإمكان تجاهلها:

– ما اقترن قلبي بفادِنا حتى نَهَلتُ من سريرتك، وحينها تبيَّنَ لي أنا وهذا الرجل - تيرح - أن زوجتك وخادمتك قد خانتا الأمانة. ليسا منّا ولا منكم، بل من قومٍ لا نعرف عنهم إلا القليل

نزلت كلماته كالصاعقة. ثم أضاف بنبرةٍ ثقيلة، مليئة بالتشويق والقلق:

– وأنت ترى، لا يفصلنا عن الحرب إلا أيامٌ معدودات، وزوجتك قد اختارت حلفًا آخر، كأنها ساحرٌ يتحكم في خيوطِه ويُحرك الدمى. وما نحن إلا الدمى، وأنت وقومك دميةٌ أيضاً..

ارتجف الهواء للحظة، وكأن الكلمات نفسها كانت تقطع النفس. وفي تلك اللحظة، شعر الجميع بثقل ما قيل، وكأن صمت اللحظة كان أقوى من أي صراع آخر.. لكني كنتُ عارفةً ومتيقنةً من أن أبي سيقتل كل من يذكر زوجته بسوء.. فلم تمضِ سوى لحظات حتى انفجر (أبي) في صراخٍ مدوٍ، ومسك بمقبض سيفه بقوةٍ تكاد تخترق الجلد:

– فرّي يا عتيانا!..

كان صوته يهدد بإشعال الأرض من تحتهم. وكأن الأمر قد أُخذ إلى حدٍ لا عودة فيه.. نعم، لقد هربتُ.. وأنا أفرُّ، حاملةً ابنتي، اخترق أذني صدى صرخة أبي.. ربما كان ذلك نحيبَه الأخير. شعرتُ بأنفاسي تتقطع، لكن قدماي لم تتوقفا. وحين بلغتُ عتبة المنزل، دوّت في الأرجاء صرختان... الأولى كانت للخادمة، والأخرى.. كانت لأمي..

بعد عودتي، جلستُ إلى (فادنا) وأخبرتُها بكل ما جرى في غرفتها. لم تندهش كثيرًا وكأنها كانت تتوقع ذلك.. لكنها باحت لي بسرٍ آخر هزّني من الأعماق: كانت حاملاً.. مضت الشهور، وحين وضعت طفلها، أصرت على أن تسميه باسم أبيه.. غير أنني اعترضت بشدة. هدَّدتها بالرحيل إن أسمته (صفوان). لا أدري ما الذي جعلها تتراجع سريعًا.. ما الذي جعلها تتخلى عن اسم كانت مصممة عليه. لم تناقشني، بل تشاورت معي في اختيار اسم آخر وكأنها في قرارها، كانت تستسلم لي أو ربما لشيء آخر لم أدركه آنذاك..

كنت لا أزال غارقة في حزني على فقدان والديّ، وما كان يغمرني حينها سوى رغبة حارقة في الانتقام، فقلت لها دون تردد: "سمّيه (ثَأْر)!" قلتها وأنا أشعر أنني أردّ لهم ضربة القدر بطريقتي الخاصة. وافقت، وربما لم يكن الاسم يعني لها ما يعنيه لي. مرَّ عامان، ثم اختفى (ثَأْر).. لم أبكِ عليه.. لكن ما آلمني حقًا لم يكن غيابه بل برود أمه التي لم تسأل عنه. لم تُظهر قلقًا. لم تحزن كما تفعل أي أم فقدت ابنها.. راودني الشك، كان هناك شيء غامض تخفيه.. شيء أكبر من مجرد اختفاء طفل. حاولت استجوابها مرارًا، لكنها كانت تصدني بصمتٍ ثقيل.. لم يكن هناك جدوى، فتركتها وشأنها.

إقتنيتُ منزلاً بعيدًا عن منزلها، بعيدًا عن كل ذلك الغموض الذي كان يلتف حولها كالشبح. مرّ الزمن، وكبرت ابنتي حتى بلغت الثامنة من عمرها.. كبرت أختي أيضاً حتى

صارت في أكثر عمرٍ أكرهه... ذلك رقم الذي مازال يتردد في مسامعي كل يومٍ أعيشه..
أصبحت أختي في السابعة والعشرون..

تقول.. أم عمران

قالت ابنةُ أبي السّابيانيّ.. فادِنا، زوج التّابيّ.. فادِنا:

بسم الإله خالقي وخالقُكِ، وجاعلٍ في الدنيا لقاءً ووداعاً..

أما بعد، يا أختاه.. فإن الذكرى قد غشيتني غشيان الغمام.. إني لأبصرُ فتاةً سوداءَ الشعر، مدببة الأذنين، طويلة الأذنين.. فما أسرع ما تعود بي الأيام.. وما أشد ما يحفر الحب في القلب من أثر! لقد أُنسيت نفسي بما كان مني من ودٍّ لبعلي.. فما بالك بسائر الخلق؟ وها أنا ذا اليوم أعود إليك بخبر ستكرهينه.. فدعيه حتى حين.. فلعمري إن قلبي ليشتاق إلى حديثك كما كان في سالف الزمان... ألم يكن لكِ في التابي هوًى؟ فلِمَ لم تكتحلي به عروسًا؟ أما لو أُوتيت من أمري ما أُوتيتِ.. لفعلت ما لم تفعلي! قد زعمت نفسي أنها حرة.. فتبعتها.. فما أدركتُ إلا وقد قادتني إلى المهلكة.. فما أشد غرور النفس إذا انفلتت.. وما أجهل المرء إذا ظن الحرية خلاصًا.. حتى يُبصرها تقوده إلى الردى!.. لقد لقيت صفوان مذ صغري.. وأعلم أنك له كارهة.. لكنه لا يعدو أن يكون عبدًا لمهنته.. يعمل ما كُتب عليه.. فنحن السابيان ظالمون.. وأما هم فلا ظلم في قواميسهم..

يا أختاه.. ما فكرت في أحد قبلك وأنا على هذا الزورق.. بين الحياة والممات.. وما تمنيت أن يخاطبني أحد بعدك.. حتى وأنا أعلم أنك لن تسمعيني..

إني أحبك.. لكني آثمة.. مذنبة.. آسفة.. آسفة.. آسفة..

إن ابنتكِ معي.. وما شاورتكِ في أمرها.. إذ علمت أنك تأبين ذلك.. ولكني نظرت في أمرها وأمر ابني.. فما وجدتُ لهما أرضًا أكرم من أرض التاب.. فذلك ما كان.. وللإله الأمر من قبل ومن بعد.

والسلام عليكِ حيثما كنتِ.

******

أدعى عتيانا.. وأقولها للمرة الثالثة. بعد أن صارت أختي في السابعة والعشرين، لم أعد أعيش كما كنت. قد يظن البعض أن كلمات مثل هذه مليئة بالدراما، لكنها بالنسبة لي مجرد حقيقة. نعم، أنا على عكس الكتّاب الآخرين، لأنني لا أسير على خطٍ سرديٍ ثابت. لا، لا، لا.. قد أسرد أي شيء في أي لحظة حتى لو لم تكن هناك متعة واضحة في السرد، لأنني واثقة من الشخص الذي سيجد مؤلفاتي. المستقبل لا أعرفه، لكنني وصلْتُ لليقين أن شخصًا ما سيكتشف هذه الكتابات يومًا ما، وسيفهم ما وراء الكلمات. هذا الشخص سيعيد ترتيب الأحداث، لأن كتاباتي نقية، بعيدة عن أرواح الغباء، مكتوبة لتصل إلى من يستحقها..

أما عن أختي، فقد عشت حياتي معها في ظل أشياء كثيرة لم أكن أفهمها حينها. لكن عندما صارت في ذاك العمر، استطعت أن أفهم ما كان في عقلها طوال حياتها. من لحظة قدومها إلى هذا العالم وحتى ..... ، كانت هناك أسرار دفينة حملتها معي. لم أعد أناديها باسمها بعد تلك الحادثة، صرت أسمّيها "القرين الأول" وكنت متأكدة أنها لن تكون الأخيرة ظاهرٌ لي أني سأواجه مثل هذه القدرة مرة أخرى لا أعرف وصفاً قد يصفها.. بل هي من تصفني..

صحّت توقعاتي. بعد عشر سنوات من ذلك، أصبح العالم بين يدي. كنت أرى وأعلم كل شيء. علمي يتجاوز الحدود، يغوص في الأعماق التي لا يتصورها أحد.. إلا حالةً واحدةً، لم أستطع فهمها.. مهما حاولت..

لا تبكي.. لا تغضب.. لا تغلق الكتاب.. إذا أردت القراءة فاقرأ، وإن امتنعت، ابتعد عن الكتاب ولا تغلقه، لأن الكتاب سيجذبك، سيشدك إليه كما لو أنه جزء منك. لا يهمني إن ماتت شخصيتك الرائعة، لا يهمني إن بكيت أبد الدهر. كل ذلك لا يغير شيئًا. المهم أن تعرف أن الموت هو خاتمة كل شيء، وكل ما هو حي مهما طال أو قصر، سيواجه هذه النهاية في يومٍ ما. فلا تتعلق بشيء. إذا كنت تعرف أن النهاية حتمية، لا تلتصق بشيء لأنه سيزول في الوقت الذي حُدد له.

هذا ما جعلني بائسة في حياتي. أنني تعلقت بشيء كنت أعرف أنه سيموت، أنه سينتهي. وتلك اللحظة التي أتيت فيها إلى هذا الوعي، كان الألم في القلب هو الجواب الوحيد.. فهذا السرد هوّ جعلني أُكمل حياتي دون انتحار...

فادنا والجنون.. أسلوبي

حكت لي أختي كل شيء، وتوقعت حينها أن صفوان لم يكن يريد طفلاً آخر إلا وهو يعلم تماماً ما سيحدث. وفعلاً صحت توقعاتي.. فبعدها بسنتين، عاد (صفوان) إلى منزلي دون أن يعلم أحدٌ بقدومه. دخل من النافذة كما كان يفعل دائماً، إذ لا شيء يغيره.. كان دائماً ذلك الفارس الذي يعرف كيف يتسلل إلى الأعماق.. أول ما فعله، ذلك الأحمق، ما إن دخل حتى اقترب مني وقبّلني، وقال بلهجته التي تغيرت بشكلٍ لافت، تلك اللهجة التي اكتسبها من أرض التاب على ما أظن:

– أريد حمل إبني.. إعطيني إياه..

حمله بين يديه، وراح يداعبه.. يده تتنقل بين خصلات شعره البني الممزوج بخيوط ذهبيةٍ حتى يضحكه، ثم قال:

– أنت وسيمٌ يا صفوان..

قمت من السرير.. تحركت نحوه ببطء.. وضعت رأسي على جبينه.. قلت وأنا أنظر في عينيه مباشرة:

– إسمه... ثَأْر لا صفوان..

تفاجأ، وابتعد قليلاً، ثم نظر إليَّ كما لو أن هناك شيءً ما تعثر في ذاكرته:

– ألم نتفق على تسميتهِ على اسمي..؟

أجبت وأنا أكادُ أبكي بكلماتٍ خرجت بصوتٍ ضعيفٍ:

– لقد قتلتم والدي... ما كان بيننا اتفاقٌ على هذا..

قال متلعثماً في الكلام.. مبعثر العقل:

– إن أمك خائنةٌ يا فادِنا... أما عن أبيك، إن لم يقاوم.. كنا سندعه وشأنه..

دموعي تساقطت وأنا أقول:

– لكن... ولكن يا صفوان... هي أمي، وهي عشيرتي في النهاية..

أعطاني الطفل ووضعته في السرير، فقال وقد ضمني بدفء.. ومسح دموعي بحنانٍ ويده تلمس وجهي:

– إنهُ تيرح.. لا يستطيع إمساك نفسه.. خصوصاً إن كان الأمر عن التاب والسابيان.. أنتِ تعرفينه يا فادِنا..

حينها لم أعد أفهم نفسي.. كنت في حفرةٍ من اللامعقول.. بين الحب والخيانة.. بين حب زوجي وقتلهِ عائلتي:

– أما قلت لي إذا تمّت الحرب، نرحل إلى دياركم؟... أنتم وتيرح لستم تيباناً ولا من بني سابيان، أليس كذلك؟ فمِنْ أي نسلٍ أنتم؟

بدأ يتحدث بصوت منخفض، نطقت كلماته بلغة غريبةٍ، لكنها كانت بلا شك العربية.. لكن مع تغيير مُعقد، كلمات أُضيف لها طبقات من الغموض تجعل الفهم صعبًا.. لم أتمكن من تحديد ما قاله بالضبط، لكن شعرت أنه يتحدث عن أمر هام:

– فادنا.. أنا أحبك... بعد سنتين ستأخذين الطريق إلى أرض التاب. الملك وافق على هذا. سأخذ ثأر معي أولاً.. وبعدها أنتِ وعمران وأيضًا زافِرّاء ستأتون إلى بلادي.. ابنة أختك مختلفة عن غيرها..

لم أتمكن من احتواء تساؤلاتي داخلي، فصرخت متفاجئة:

– كيف؟ ولماذا أخذ زافِرّاء معي؟ كيف سأسير إلى أرض التاب؟ هل أنت جاد؟ وكيف أعيش هناك ولم أرَ أحداً إلا ويسب أرض التاب؟ أريد العيش بـ...

حينها قطع حديثي بابتسامة، وضع إصبعه على شفتي وهوّ يقول بلهجته التي عرفته بها:

– سأجعل من يحول بيني وَمَسِيرِي حَليفاً لِلرَّدَى، لَكِنَّ الأرض هناك رحيمة، سيكون لنا مفرٌ فيَذَرونا نَجْتاز.

– أنت لم تجبني... لمَ تأخذ معي زافراء، وها أمها تصارع ما هي فيه؟..

عاد يتكلم بلهجته الجديدة:

– قلت تقي فيّ فحسب..

– ما أنا بباغيةٍ.. لا أريد!

تفاجأ مما قلته، فأدركت أنه يريد السبب.. فقلت:

– أجننتَ أم ماذا؟ إنها ليست ابنتي! ماذا تظن عن شعور أمها؟ إنها أختي، وأريد لها الخير..

ساد الصمت لبرهة، حتى كسر صمتنا بكاء (ثأر)، الذي كان في السرير يلعب بألعابه. بدأ يبكي، فتقدم (صفوان) نحوه، ليلعب معه حتى هدأ ونام.. ثم قال زوجي وهو يغطّي ابنه بالغطاء:

– فادِنا..

نظرتُ في عينيه بنظرة لها معنى.. فَهِمها.. دون تواصل ملموسٍ حتى قال:

– شكراً..

همّ يجمع أدواته في صمتٍ، لكن عندما فتح النافذة، سمعت خطوات قادمة إلى غرفتي. كانت خطوات (عمران). دقّ ابني الباب.. فتحت له الباب.. دخل من الباب.. أدرت رأسي نحو النافذة وأنا قرب الباب.. ورأيتُ النافذة مواربة، تتسلل منها نسمات الليل الباردة، فتراقص الستار برفق وكأنه يلوّح لظلٍ راحل أو سرّ يوشك أن ينكشف.. السرير كان خاليًا من طفلي، وغطاؤه مبعثر. حينها، عرفت أن (صفوان) أخذ معه (ثأر).. لم يكن في يدي شيء لأفعله ، كان لا بد لي من اتباع خطته. مرت سنتان ولم أبدي أي رد فعل تجاه (ثأر) وهذا ما جعل أختي تبتعد عني. ظنًا منها أنني قد جننت لعدم اكتراثي بإبني.. أما عن (عمران)، فقد بدأت بتدريبه على عدة أشياء. علمته السباحة لأننا سنسافر إلى أرض التاب بالزورق وليس بالسفينة. كما دربته على القتال.. فقد نكون في مواجهة مع أناس متوحشين في رحلتنا. كلما سألني عن سبب هذه التدريبات، كنت أقول له أننا سنسافر إلى بلدةٍ أخرى. في البداية كان يرفض، لكنني كنت أعلم جيدًا أنني إن طلبته في شيءٍ.. فسيتبعني إلى حيث أذهب..

وأخيرًا، آن أوان رحيلي.. في تلك الليلة وقبل أن يشرق الفجر، تسللت إلى منزل أختي عبر باب الحديقة.. الذي أوصيتُ (عِمران) بأن يتركه مواربًا. كان يمكث عندهم حينها، ولم يشك أحد في الأمر. أخذتُ معي (زافِرّاء)، الصغيرة التي لم تدرك ما كنت أخطط له. أخبرتها أننا سنتطلق في رحلة تمتد لثلاثة أيام.. نجوب فيها القرى المجاورة، نستكشف الجبال والوديان، ونلاحق الفراشات في الحقول. راق لها الأمر كما يروق لأي طفلة مفتونة بجمال الطبيعة، ولم تتردد في مرافقتي، معتقدة أن أمها على علم بذلك.. لكن قبل أن تتبعني، استدارت نحو أمها النائمة واقتربت منها في هدوء. انحنت وطبعت قبلة على جبينها، بينما كانت المرأة تغوص في أحلامها، تمتمت بكلمات وهي ما زالت غارقة في النوم:

– إبقي معي يا فادِنا..

ماذا كان علي أن أفعل؟ أعود أدراجي؟ أم أُكمل رحلتي؟ كنت في حالة من الاضطراب.. ولا شيء في يدي يمكنني فعله. إلا أنني كنت أُوهم نفسي بذلك فقط...

وصلتُ إلى الميناء، حيث كان الصيادون منشغلين بتجهيز قواربهم استعدادًا ليوم جديد في البحر. تجولتُ بنظري بينهم، باحثًا عن صاحب القوارب، بينما أمسكتُ بـ(زافِرّاء) بيدٍ، وابني باليد الأخرى. كان هو من يحمل الكيس الذي وضعتُ فيه ما يكفينا خلال الرحلة.. بعد لحظات، وقع بصري على رجل عجوز يجلس على كرسي خشبي، واضعًا ساقًا فوق الأخرى. كان يعتمر قبعة شمسية، رغم أن الظلام لا يزال مخيمًا. اقتربتُ منه بحذر.. وما إن صرت أمامه حتى تفحصني بعينين ثاقبتين، من قدمي حتى رأسي. ظننته متعجرفًا ككثير من عجائز بلدتنا، لكنه باغتني بهدوئه وهو يقول دون تكلّف:

– إلى أين تمضين يا عبدة الإله؟.. ما خير لكِ من البلدان إلا جوارنا؟

رفعتُ رأسي وأجبتُ بثقة اكتسبتها من سنين تعلّمت فيها كيف أقنع من أمامي:

– كلا.. ما جئتُ إلا لأستأجر هذا الزورق..

أشرتُ إلى قاربٍ حديدي، يعلوه شراعٌ يرقص بخفةٍ مع نسمات الليل الباردة، وكأنه يهمس للبحر بأغنية قديمة. لمح العجوز إشارتي، فتأمله لحظة ثم قال باستغراب:

– أتملكين ما تؤدين به كراءه؟ لا أزهد بكِ، ولكن لا أراكِ قادرةً على دفع ثمنه.. على كلٍّ، هو بخمسين سوبان..

تفاجأت من مبلغه الهائل.. فهذا المبلغ قد أبني به منزلاً ويبقى لي الكثير.. قُلت:

– هو غالٍ جدًّا.. وإني أبتغي السفر في رحلة بعيدة..

ما إن نطقت بذلك حتى وقعت عيناي على (زافِرّاء)، كانت تحدّق بي بفضول وكأنها تحاول فهم ما يجري.. أدركت أنني كشفت عن غايتي أكثر مما ينبغي فتداركتُ الأمر وسألتُ العجوز:

– أعندكِ ما تشير به؟ لا أريد إلا زورقًا يحملني وهذين الصغيرين، ولا يجاوز بنا ثلاث ليالٍ، وإن كان مظهره هينًا..

نهض العجوز متثاقلًا واتجه نحو عربة تجرّها دابّة، مغطاة بقماش سميك. أزاح الغطاء ليكشف عن قارب خشبي، تبدو عليه ندوب الزمن، شقوقه تروي حكايات رحلات مضت. أشار إليه.. وقال بصوت عميقٍ كمن يفرغ من حمل قديم:

– قد أهبه لكِ شفقةً، فقد رقد عندي ثلاثين عامًا أو يزيد. كلّ من اعتلاه، إما غرق، وإما عاد وحده بعد أن فقد رفاقه. غاب عن عيني خمس سنين، ثم وجدته حيث لم أحتسب. خذيه بخمس سوبان، ولا أجلَ لكِ عليه..

لم ألتفت كثيرًا إلى تحذيره، فالروايات القديمة التي تُحاك حول القوارب لا تعنيني. أخرجت محفظتي، ناولته المال، وقلت:

– لن أنسى لك هذا الصنيع..

عاد إلى مجلسه.. لكن نظراته لي بدت غريبة.. نظراتٍ لم أفهمها. بعدها، صاح بصوته الأجش على أحد خدمه ليجهّز القارب لنا. وما هي إلا لحظات حتى أقبل الفتى قوي البنية.. الذي عرفتُه من قبل، إنه صاحب (عِمران).. انتظرنا برهة حتى فرغ من تجهيز القارب، ثم صعدتُ إليه ومعي الطفلان، ورحتُ أتمتم في نفسي:

<< وداعاً... يا أرض الملاعين.. أرض السابيان المجانين.. >>

كان القارب بلا شراع، وهذا ما أثار استغرابي. لم يكن أمامنا سوى أربعة مجاديف، أمسكت باثنين، بينما أمسك ابني بالاثنين الآخرين، نحركها بتناغم، ندفع بالماء بعيدًا عنا، وكأننا نحاول قطع المسافة بأسرع مما يسمح لنا القدر. أما (زافِرّاء)، فكانت غافية، رأسها مستقر في حجري، أنفاسها هادئة كنسيم الليل.. جدفت بقوة، وعيناي معلقتان بالأفق، أريد الوصول سريعًا إلى أرضِ التاب. طوال الطريق، ظل (عمران) صامتًا، لم ينطق بكلمة، وكأن البحر قد سلب منه صوته. لم أشأ أن أضغط عليه بالسؤال، ربما كان ذهنه مثقلًا بما لا أستطيع أن أحتمله أنا.. مع مرور الوقت، أصبح الميناء خلفنا مجرد نقطة ضائعة في الأفق، ثم تلاشى تمامًا، ولم يبقَ سوى البحر الواسع أمامنا. وحين أشرقت الشمس، أرسلت أشعتها الذهبية على

سطح الماء، التفتُّ إلى الصغيرة، فوجدتها تحدق بي مبتسمة، مسحت شعرها بأناملي وربتُّ على رأسها بحنان، ثم قلت بصوتٍ أنهكه التجديف:

– دعونا نأخذ قسطًا من الراحة، فالطريق طويلٌ والموج لا يُرحم..

ألقيتُ بالمجاديف جانبًا، وتركت القارب ينساب بنسمات الهواء التي تغسل وجهي من العرق.. أخرجتُ قنينة ماء وبعض الطعام، ومددتها إليهما، فبدأنا نأكل بصمت، كأن البحر فرض علينا هدوءه اللامتناهي. كان الطعام بسيطًا، لكن بعد ساعات من التجديف، بدا وكأنه أشهى وليمة.. وقلت لـ(عمران) بعد أن أكملنا وجبتنا:

– دعني أكمل عنكَ هذا الشقاء.. خذ قسطاً من الراحة..

لكنه رفض مبرراً أنه رجلٌ وليس طفلاً.. لم أجادله.. واصلنا التجديف حتى حلّت الليلة الأولى.. ونمنا ثم الثانية وأخيراً الثالثة.. كانت على عكس ما كانت عليه الأخريات..، غمرنا صمتٌ ثقيل لم يقطعه سوى حفيف الموج الخفيف. كان القمر تلك الليلة مشعًّا كأنه وهج الشمس انعكس على وجه الماء.. نقيًا.. متلألئًا.. يضيء لنا عتمة البحر. نفختُ على الفانوس الصغير حتى انطفأ، وأسلمتُ نفسي للنوم، غير مدركة أنها ستكون آخر ليلة لي في الحياة.

قبل أن يغلبني النعاس، أخذتُ أستعيد في رأسي كل ما مررتُ به حتى هذه اللحظة، منذ لقائي بحبيبي وحتى الآن، كأن حياتي كلها تُعاد أمامي، كأنها قصة تُروى لي من جديد. تمتمتُ في داخلي:

<< لتدمنّ بخيرٍ إن أراد صفوانُ.. وكما أراد زوجي وشاء.. فلا مردّ لما قد شاء >>

لم يطل نومي، إذ أفزعني صوت صراخ حاد.. كان صوت (زافِرّاء). انتفضتُ فزعة، كانت الصغيرة تصرخ وهي غارقة في حلمها. مسحت على رأسها برفق، أهمس لها بكلمات تهدئها، حتى عادت إلى النوم مجددًا. لكن لم يمضِ وقت طويل حتى أيقظتني مرة أخرى.. تصرخ في نومها من جديد. شيء ما لم يكن طبيعيًاولم تكن تفعل هذا من قبل. ضممتها إليّ بحنان.. أردت أن تطمئن، أن تشعر بالأمان بين ذراعي.. لكن حين استيقظتُ للمرة الثالثة على بكائها.. كان الأمر مختلفًا هذه المرة، كانت تنتحب بهستيرية.. جسدها يرتجف في أحضاني. تحرك (عمران) مستيقظًا من نومه، نظر إليّ بقلق، لكنني أشرت له أن يعود للنوم فلا داعي لأن يثقل ذهنه هو الآخر.. أما (زافِرّاء).. فقد هدأت أخيرًا...

حين بزغت الشمس.. كنت لا أزال مستيقظة أجدف وحدي.. لم يغمض لي جفن منذ آخر مرة أيقظتني فيها الصغيرة. كانت عيناي تبحثان في الأفق عن أي بارقة أمل.. ثم لمحتها... فمددت يدي للأعلى كأني وجدتُ خلاصي وأنا أقول:

– جـبـال الثـلـوج... أرض الـتـاب.. !

ظهرت أمامي شامخة، تمتد على مدّ البصر، تشق الأفق كأنها بوابة إلى عالم آخر. شعرتُ بفرحة غامرة، وقلت بصوت مرتجف من الحماس:

– لقد اقتربنا!

استيقظ (عمران) و(زافِرّاء) من نومهما ثم مسحا عيناهما بسرعةٍ والتفتا إلى حيث كنت أشير، وما إن رأيا الجبال حتى أشرق وجهاهما بالفرح. كانت الرحلة تقترب من نهايتها، أو هكذا ظننت..

لكن ما حدث بعد ذلك لم يكن في الحسبان. في لحظةٍ مفاجئة، أقبل (عمران) وكأن فرحته قد أبت إلا أن تظهر بأقصى قوتها، فخلع ملابسه وقفز إلى البحر كأنه يطير فوق سطحه.. ارتفع صوته النشيط.. يملأ الأفق صرخاتٍ ملؤها الحياة، وهو يتنقل بين الأمواج بكل عزمٍ، وكأن البحر قد أصبح له وطنًا. كانت صرخاته تصلني كالأصداء وتدوي في مسامعي بكل قوتها.. أما (زافِرّاء)، فقد كان وجهها يخبئ خجلًا شديدًا. وضعت ظهر يدها على فمها، وجسمها يرتعش برقة.. كأنها رأت حبيبها لأول مرة بعد غياب طويل.. لم أستطع إلا أن أبتسم، فقلت مازحة:

– أرى أني قد وجدّت من ينام مع ابني إذا هَرِمَ..

رفضت (زافِرّاء) بحرجٍ.. وجعلها الخجل تزداد حمرتها حتى بدت كطماطم ناضجة. ما إن صعد (عمران) إلى القارب حتى زاد حرجها.. فبدأت تحاول إخفاء توترها. نظرتُ إليه وأشرت بأن نسرع فاستجاب على الفور وأمسك المجداف وأخذ يضرب الماء بقوةٍ حتى بدأت المياه على جانب الزورق تظهر فيها رغوة بيضاء، تتصاعد وتنفجر في فقاعاتٍ صغيرة.. كما يحدث عندما يتدفق الماء سريعًا من فتحات ضيقة.. وأنا أيضًا أمسكت مجدفي، وحركته بانسجامٍ مع ابني.. كان جسمه يوازن الزورق بحركةٍ ثابتة.. كنت أعطي ظهري للجهة التي تأتي منها أرض (السابيان)، وأنا أراقب ظهره فقط.. لكن فجأة، التفتُ لجانبي.. فرأيت موجاتٍ خفيفة تتلاشى على سطح البحر، كأنها أثرٌ لشيء يتحرك خلفنا.. شيء لا أراه.. لم تكن الموجات عنيفة، بل مجرد تموجاتٍ رقيقة، تنساب بهدوء.. لكنها لم تكن طبيعية.. بدا وكأن ماء البحر ينحني قليلًا أمام شيءٍ يشقه بصمت.. لم أكن أعلم إن كان قاربًا أم مجرد وهمٍ صنعته عيني وسط اتساع البحر.. لكن شيئًا ما هناك.. بلا شك.. يتحرك خلفنا..

أردت أن ألتفت، لكنني تراجعت.. كنت أجدف مع ابني بحذر، لا أريد أن أفقد التوازن الذي استعدتُ جزءًا منه بعد تعبٍ طويل.. لذا، طلبتُ من (زافِرّاء) أن تلتفت، هي التي

كانت مستندة إلى جانبي، رأسها في حجري.. عندما أدارت رأسها، انتفض جسدها كما لو أن صاعقة ضربتها.. في لحظة، تغير وجهها بالكامل.. شحب لونها حتى بدت كجثةٍ غارقة، عيناها الزمرديتان، اللتان كانتا تشعان بالحياة، انطفأ بريقهما، واتسعتا باتساعٍ غير طبيعي، كأنهما تحاولان التهام المشهد خلفي دون أن ترمشا.. شفتاها تباعدتا قليلًا، لا كمن يريد الكلام، بل كمن شهق شهقة الموت الأولى ولم يستطع أن يلفظها.. أنفاسها تقطعت، صدرها أخذ يعلو ويهبط بجنون.. ارتجف فكّها، وكأن البرد اخترق عظامها رغم حرارة الشمس.. لم تصرخ، لم تبكِ، لم تهرب بعينيها.. فقط كانت تحدق في شيء خلفي، كأنها رأت شيئًا خرج من كوابيسٍ لم يخلق لها اسمٌ بعد..

استغربت منها.. ناديتها.. لم تستجب.. كانت كأنها تحجرت، جسدها جامد، وعيناها لا ترمش.. شيء ما كان ينهش عقلها، يجمدها في مكانها..

لم يكن أمامي إلا أن ألتفت.. لكن ما إن بدأت بتحريك رأسي حتى شعرت بتمزقٍ مفاجئ في لحمي.. شيء حاد اخترق عنقي، تسلل عبره بردٌ قارس وكأنه سحب روحي معه.. لم أفهم.. لم أستوعب.. فقط شعرت بالدم يتدفق، ساخنًا أول الأمر، ثم باردًا كالجليد.. أمام عيني، كان يقف والد (زافِرّاء).. عيناه كأنهما من حفرةٍ بلا قرار، جمود قاسٍ، وجه بلا تعبير، بلا رحمة.. خلفه، وقف جندي سابياني لم أرَ منه سوى علامةٍ في ملابسه توحي أنه من السابيان، لكنه كان قاتلي.. الرمح لا يزال مغروسًا في عنقي، نبضي يتباطأ، الهواء يهرب مني، روحي تتمزق.. لم أستطع حتى الصراخ..

خارت قواي، تهاويت، وسقطت.. لم يكن الماء تحت قدمي، لم يكن هناك بحر.. كان ظلامًا ممتدًا.. بارداً.. عميقاً.. يبتلعني دون أن أقدر على المقاومة..

ماتت فادِنا...

لا يمكنك..

أن تَدخل النهر نفسه مرتين.

قالها هيراقليطس

وكتبها أنس وليس عتيانا

زافراء.. قبل زفافها وما جرى.. أسلوبي

ما إن أدرتُ رأسي حتى تجمدتُ في مكاني.. رأيتُ من يُقال أنه أبي، لكنه لم يكن كما تخيلته يومًا.. لم يكن صورةً غامضة في ذهني، ولا ذكرى باهتة.. كان حقيقةً مرعبة، كابوسًا متجسدًا أمامي.. عيناه، كانتا كعتمة لا قرار لها، نظرة باردة، خالية من أي شعور.. وقف عقلي عن التفكير، وكأن الزمن توقف.. لكن ما أيقظني من الصدمة كان ذاك الرمح.. كان موجهاً إليّ، جاهزًا ليحصد حياتي في لحظة.. لكن خالتي تحركت.. التفتت.. لم تكن تعلم أنها بذاك الالتفات قد أنقذتني، وأنها قدمت عنقها بدلاً من عنقي.. رأيتُ الدم يتفجر، يتدفق كنهرٍ أُطلق من سجنه.. رأيتُ جسدها ينهار، يُسحب من القارب إلى الفراغ، إلى البحر المظلم.. كنت أريد الصراخ، أردت أن أتحرك، أن أفعل أي شيء.. لكنني كنت جامدة، مشلولة، كأنني أنا التي تلقيت الطعنة..

حين صرختُ، كنتُ أظن أنني وحدي من شعر بانهيار العالم.. لكن صرختي كانت الطعنة التي شقت وعي (عمران)، مزقته من الداخل، دقّت في أذنيه كناقوس القيامة.. التفتَ، فرأى أمه عائمةً فوق البحر، الدم يسيل من عنقها كجدولٍ نازف، والرمح لا يزال مغروسًا كأنه امتدادٌ لجسدها.. للحظة، لم يتحرك.. عيناه اتسعتا، جسده بدأ يرتعش، لكنه لم يكن رعبًا ممن قتل أمه، بل خوفًا من نفسه.. من الفراغ الذي امتلأ فجأةً بغضبٍ لم يعرفه من قبل.. وجهه تغيّر.. عروقه انتفخت، فكّه تصلّب، وقطرات العرق تجمعت على جبهته المتغضنة بتعبيراتٍ

متناقضة.. عينٌ ترتجف بالخوف، والأخرى جمرةٌ مشتعلة.. أنفاسه خرجت متقطعة، كأنه ينهش الهواء بفمٍ جائع للانتقام.. لم يفكر، لم يتردد.. في لمح البصر، انقضّ على كيس أمه، يده نبشت داخله بجنونٍ حتى قبضت على سكينٍ صغيرة.. لم تكن سلاحًا، لم تكن شيئًا يُقتل به رجل.. لكنها كانت كل ما يملك.. كل ما تركته له أمه قبل أن تتركه للأبد..

قفز، قفزةً أعلى من أي قفزةٍ قفزها من قبل، رمت به فوق القارب الآخر حيث وقف أبي والجندي السابياني.. بلا تردد، بلا خوف، غرس السكين في كتف أبي، لكن قبل أن يغرسها أعمق، انقض الجندي عليه.. ضربه في ظهره بقوةٍ كافيةٍ لتكسر عموده لو كان أضعف.. أطاح به إلى البحر، لكنه لم يستسلم.. تشبث بحافة القارب، أظافره حفرت الخشب وهو يحاول الصعود.. لكنه لم يكد يرفع نفسه حتى هوت عليه ضربةٌ أخرى.. ثم أخرى.. يده انزلقت، لكنه عاد ليمسك، عاد يحاول، يحفر بأصابعه كأن البحر نفسه يرفض أن يأخذه قبل أن ينتقم.. لكن الجندي، بابتسامةٍ خبيثةٍ لا ترحم، رفع خنجره عاليًا.. وبضربةٍ واحدة، مزّق ذراع (عمران)..

لحظة صمتٍ مهلكة.. نظراتٌ انطفأت.. يدٌ مقطوعة لا تزال ممسكةً بالحافة، بينما صاحبها يتهاوى إلى القاع.. ارتطم بالماء لكنه لم يحاول المقاومة.. لم يعد يحاول التشبث بالحياة.. عيناه التقتا بعينيّ للحظة.. ثم اختفى.. ابتلعته ظلمة البحر، وظلّ الدم يطفو فوق السطح، يروي قصة طفلٍ لم يُعطَ حتى فرصة البكاء..

ثم هرب أبي..

بدأ أبي يجدّف بجنون، لا أعرف لمَ، لكن سرعته ازدادت حتى ابتعد عني بسرعةٍ مخيفة.. كنت أحدّق في الماء، حيث غرق (عمران)، وقلبي يخفق بعنف.. لا أعرف السباحة، لكنني قضيت عامين أراقب (عمران) يتدرب عليها، كنت أعتقد أنني أستطيع، أو على الأقل أفهم

كيف أفعلها.. لكن حاجز الخوف كان أقوى من أي معرفة.. تشنّجت أطرافي، وقفتُ عند حافة القارب مترددة.. كنت أريد القفز، لكن رعشةً باردةً سرت في عمودي الفقري.. لم أستطع.. كنت معلّقة بين قرارين، بين الحياة والموت، بين الخوف والجرأة.. حينها، همستُ لنفسي:

<< أيَّ فزعٍ تأتينَني بهِ يا نفسُ؟ أترينه يغورُ في اللُّجِّ ولا تهُبِّينَ لهُ؟ >>

فعلاً.. قفزت نحو البحر وغطست عميقًا، المياه الباردة تلسع جلدي، لكني لم أعرها انتباهًا.. كنت أبحث عنه. وما إن رأيته حتى شعرت بوخزةٍ في صدري.. كان طافيًا بلا حراك، جسده مستسلم تمامًا، ودماؤه تسيل من ذراعه فتترك خيطًا قاتمًا يمتد في الماء..

اندفعت نحوه بكل قوتي، مددت يدي وأمسكت بجسده المترهل تحت وطأة الغرق.. حاولت رفعه، لكني شعرت وكأنني أرفع صخرةً ثقيلةً تسحبني معها نحو القاع.. كان الهواء في رئتي ينفد، وعضلاتي تهتز من الإجهاد.. لكني لم أستسلم.. شددت قبضتي على كتفه، وضربت الماء بساقي بكل ما أوتيت من قوة.. حتى استطعت أخيرًا أن أصعد به إلى السطح.. شهقتُ ما إن لامست وجهي أول نسمة هواء، وكأنني خرجتُ من قبرٍ مظلم.. أمسكت بالقارب بأصابع مرتجفة، رفعت (عمران) بصعوبةٍ وألقيته داخله، ثم تشبثتُ بالحافة محاولةً الصعود.. لكن ثيابي الثقيلة صارت كالأغلال تكبلني، تعيق حركتي.. كان جسدي كله مُنهكًا.. فمزقت الملابس التي التصقت بي حتى لم يبقَ إلا ملابسي الداخلية، ثم تسلقتُ أخيرًا وسقطت داخل القارب بلا قوة..

لم يكن هناك وقتٌ للراحة.. أسرعتُ نحوه، وضعت يدي على صدره، وضغطت بقوة.. واحدة.. اثنتان.. ثلاث.. بلا استجابة.. اقتربت من وجهه، شفاهي فوق شفتيه، ونفختُ بكل

ما في رئتيّ من هواء.. شعرتُ بدمي يغلي في عروقي من التوتر، جسدي كله احترق بحرارة اليأس.. وضعت أذني فوق صدره.. لا شيء..

<< لا.. لا.. لا.. ما كانَ ليهلك .. ما كانَ ليهلك.. >>

قلتها في نفسي وأنا أعيد المحاولة مرة.. ومرتين.. وثلاثاً .. بلا فائدة.. دموعي سالت بلا إرادةٍ مني، بحرقة، بغضب.. ضربتُ القارب بقبضتي وأنا أصرخ.. كنت أعرف هذه الطريقة.. رأيت أمي تفعلها كثيرًا.. لماذا لا تعمل؟.. كنت على وشك الانهيار حقاً.. لكن..

عندها، تسلل إلى أعماقي صوتٌ لا أعرف مصدره.. لكنه كان دافئًا، مطمئنًا.. وكأن صاحبه يعرفني جيدًا.. قال لي: "يا عزيزتي.." شعرتُ برجفةٍ تسري في جسدي.. لا أدري من، لكن كلماته (ها) أيقظت فيَّ بصيص أملٍ لا أريد أن أفقده.. بجنونٍ، كررت المحاولة من جديد.. ضغطتُ بقوة على صدره، نفختُ في فمه.. مرةً.. مرتين.. عشر مرات.. لم أعد أعد.. حتى كاد اليأس يبتلعني مجددًا.. وضعت أذني على صدره.. لم أسمع شيئًا.. لكن لا، ربما أصوات الطيور تشتتني.. ركزتُ كل كياني، كل حواسي.. ثم، فجأة.. نبضة.. ضعيفة.. بالكاد محسوسة، لكنها موجودة..

نظرتُ إليه، إلى ملامحه التي بدأت تستعيد شيئًا من الحياة والوعي. فتح عينيه وحدّق بي للحظة، ثم ارتسمت على وجهه علامة استغراب خجول. تبعتُ نظراته، فأدركتُ أنه كان يتجنب ملابسي المبللة التي التصقت بجسدي وسرعان ما أدار وجهه ناحية الجبال الثلجية في الأفق، متظاهرًا بالانشغال بها. قبل أن يقوم، سبقتُه إلى الحركة، أبحث عن قماشٍ أربط به يده التي كان الدم ينزف منها بغزارة. عدتُ فوجدته ما زال يحدق في الجبال بلهفة. أمسكتُ بيده وحزّمت الجرح بالقماش الأبيض، حتى تغلغل فيه اللون القاني وصار أحمرَ مسودًا.

حاول أن ينهض، لكنه لم يكد يتحرك حتى تذكر.. تذكر يده.. أو بالأحرى يده المقطوعة. تجمدت ملامحه، عينه كانت فارغة من أي تعبير للحظة، ثم بدأت الحقيقة تضربه بعنف، تتسرب إلى عقله كسيل جارف لا يمكن إيقافه. تصلّب جسده، وكأن الصدمة قيّدته للحظة، لكنه فجأة انتفض.. بدأ يحاول الوقوف، لم يستسلم حتى عندما خانه توازنه فسقط مرارًا، ظلّ يحاول بإصرار يكاد يقتلني رعبًا.. حتى نجح. وما إن وقف، حتى انطلق بجنون، يركض نحو حافة القارب، عازمًا على القفز واللحاق بأبي.. لكنني أمسكت به.. أمسكت به بكل قوتي، جذبتُه في اللحظة الأخيرة، فسقط وسقطتُ معه، وصرختُ.. صوتي يخرج كرجاءٍ يائس:

– ماذا تنوي فعله؟.. أتتبعهم؟.. وكيف تفعل ذاك؟

قال بغضب، وقد اشتعلت عيناه كجمرتين في مهبّ الريح:

– وما شأنُكِ!.. لو وقع بأمكِ ما وقع بأبي، لأصبتِ بالجنون هاهنا!..

تشنجت ملامحي، شعرتُ بحرقةٍ في صدري، ودموعي تجمعت عند طرف عيني، لكني لم أتمالك نفسي.. رفعت يدي وصفعته بقوة، حتى اهتز رأسه مع الضربة، ثم صرختُ باكيةً:

– لماذا؟!.. لماذا أنت هكذا؟! نحن لا نزال أطفالًا.. فلمَ تحاول فعل كلّ شيء وحدك؟.. لماذا ترفض المساعدة؟.. لماذا فقط؟!

وضع راحة يده على خده حيث استقرت الصفعة.. وربت عليه ببطء كأنه يستوعب ما حدث.. نظرته الغاضبة خبت شيئًا فشيئًا، حتى صارت فارغة، خاوية.. عيناه كانتا تقولان أكثر مما تفعل شفتاه.. لم يعد غاضبًا، لم يعد حتى مكترثًا.. تلك النظرة التي تأتي حين يفقد المرء كل

شيء.. نفس النظرة التي جعلت قلبي ينكمش خوفًا.. ثم، وسط ذلك البرود القاتل، ابتسم، ابتسامة شاحبة.. باهتة، وكأنه يسخر من كل شيء.. وقال:

– إذن..

قلتُ مستغربةً، وأنا أحاول قراءة تلك الابتسامة الباردة التي لم أرها على وجهه من قبل:

– إذن ماذا؟..

التفت إليّ، وعيناه تلتمعان بغموض غريب، قبل أن يقول بصوت هادئ، كأنما يحدّث نفسه:

– ما العمل الآن؟.. أنكمل الطريق إلى تلك الجبال؟..

لم أُجب. نهضتُ من مكاني، واتجهت نحو كيس خالتي، يداي تبحثان بين محتوياته بلهفة، علّني أجد شيئًا يسترني.. لم يكن هناك سوى لباسٍ حريريٍّ للنوم، فسحبته على عجل وارتديته فوق ملابسي الداخلية. كان خفيفًا، لكنه أفضل من العراء.. وبينما كنتُ مشغولة بذلك، جاءني صوته فجأةً، لكن بنبرة مختلفة.. نبرة أقرب إلى العمق منها إلى العبث:

– أتعلمين يا هذه..؟

توقفتُ عن الحركة، رفعت رأسي نحوه متفاجئةً.. لم يعهدني بهذا اللقب من قبل.. كنتُ معتادة على اسمي، أو حتى على صيغ أخرى أكثر قربًا.. لكن "يا هذه"؟.. كان جالسًا على طرف القارب، يحدّق في شيء غير مرئي، كأنما ينظر إلى عالم آخر..ثم تابع:

– أدرك أشياء كثيرة.. لكن حين أكون في حالتي الأصلية، تندثر كلها.. أما الآن، فقد عادت تطاردني.. سبق أن قررتُ ألا أحدِّث أحدًا عنها.. لكني أجد نفسي أبوح بها لكِ رغمًا عني..

عقدتُ حاجبيّ، ولم أستطع كبح لساني حين قلتُ بقلقٍ واضح:

– لا أفهم.. من تكون؟ وما هذه النفس التي تتحدث عنها؟ ومن الذي..

لكنه لم يمهلني، رفع يده مقاطعًا كلامي:

– قلتُ صمتًا، يا هذه.. إني أتكلم.. ولم أعد أفهم ما يجري هنا.. أتدرين؟..

سكتَ لبرهة، ثم أدار رأسه نحو الأفق حيث كانت الشمس تذوب في البحر، سكب ضوءها الذهبي على قمم الجبال البعيدة.. كان مشهدًا خلابًا، لكنه بدا وكأنه ينظر إلى شيءٍ آخر تمامًا، شيءٍ لا أراه.. ثم همس بصوتٍ بالكاد سمعته:

– أتدرين لمَ نحن هنا؟..

قلت بلا تردد، وكأن الجواب منقوش في أعماقي:

– أرضُ التاب..

ظننته سيتفاجأ، لكنه لم يفعل.. بل اكتفى بابتسامة غامضة، لم أتمكن من قراءتها، وقال بصوت خافت:

– عرفتك ستعرفين يا فتاة عتيانا..

شعرتُ بتيارٍ باردٍ يجري في عروقي، فقلتُ بانفعالٍ حاولتُ كبحه:

– ما بالك؟.. لمَ تبدو هكذا؟.. أمي تناديها وكأنها أختك!

اختفت ابتسامته، وضمّ جسده بذراعيه كأنما يحاول احتواء شيءٍ داخله.. بعد لحظة صمت، قال بهدوءٍ غريب:

– أيهمّنا الاسم الآن؟.. الاحترام هو ما يطغى على كل العلاقات.. حين تكون صغيرًا بعقلٍ كبير، فإن مجرد صغرك هذا يجعلك تُجِلُّ من يكبرك، بلا حاجة إلى مقارنات.. فقط لأنه وُلد قبلك..

ثم نهض ببطء، وخطى نحو حافة القارب.. كان البحر هادئًا، لكن جسد والدته ظلّ ينجرف بعيدًا مع التيار.. حدّق بها طويلًا، لم يحرك ساكنًا، ولم ينبس بكلمة، وكأن الزمن توقف عنده.. ثم، ودون أن يرفع بصره عن الجسد المبتعد، تمتم بصوتٍ بالكاد يسمع:

– غضبُكِ الآن ليس بسبب تصرفي.. لا، لا، ليس هذا السبب إطلاقًا.. أنتِ غاضبة فقط لأنني ناديت أمك باسمها.. مجرد هذا جعلكِ تنفعلين..

كان صوته هادئًا، لكن كلماته دخلت إلى عمقي كطعنةٍ غير متوقعة.. لم أفكر في الأمر من هذا الجانب.. تحركتُ نحوه، وقفتُ إلى جانبه، نظرت في عينيه، كانتا تائهتين في شيءٍ لا أستطيع الوصول إليه.. قلتُ، وقلبي ينبض بغضبٍ وقلق:

– ما بك يا عمران؟!.. أنا غاضبةٌ من تصرفك.. ما شأننا بأمي الآن؟.. خالتِي ميتة، وأنتَ تتصرف كأن شيئًا لم يكن.. إنها أمك!

استدار إليّ ببطء، ثم رسم على شفتيه ابتسامة لم أصدقها.. كانت زائفة، وكأنها مجرد قناع يخفي تحته شيئًا ثقيلًا، ثم تمتم بصوتٍ خافتٍ ثابت:

– ما يهم الآن أنني سأذهب.. إلى حيث يوجد صفوان.. حيث يوجد تيرح.. حيث يقيم التاب.. حيث وُلدت رُنَّعْدَنْ..

لم تكد كلماته الأخيرة تنتهي، حتى تهاوى جسده فجأةً.. صرختُ باسمه، وهويتُ على ركبتيّ بجواره، أمسكتُ بكتفيه وهززته، لكن بلا جدوى.. كان قد فقد وعيه.. جسده مُنهك، ودمه ينزف من يدهِ بلا توقف.. رغم أني ربطتها إلا أني لم أتقن الربطة..

حينها هبّتْ الريح باردةً فوق البحر.. والشمس غاصت بالكامل خلف الجبال.. أما أنا، فقد بقيتُ هناك، على أرضية القارب، أناديه بصوتٍ يائس، بينما الدموع الساخنة تملأ عينيّ..

أكرهها.. وأحبها

مرت السنوات حتى بلغت الأربعين، وأصبحت الذكريات تتسلل إليّ كما يتسلل ضوء الفجر إلى غرفةٍ منسية. أذكر امرأةً.. ربما كانت في الستين، أو السبعين، أو شيئًا كهذا.. كان الكِبَرُ واضحًا على ملامحها: شعر رمادي يتطاير مع الريح، وجه مجعد حفرت فيه السنين أخاديدها، ومحفظة جلدية سوداء، تآكلت أطرافها بفعل الشمس، تتدلى من يدها كأنها جزءٌ من عمرها الذي أثقلها.

كنت في جزيرةٍ آنذاك.. لا، لم أكن في مكانٍ مهجور، فلا تستبقوا الأحداث بمخيلاتكم. لم أذهب إلى الجزيرة إلا هروبًا من نفسي.. من ذلك الصداع الذي يرافقني منذ عرفتُ أن لي قرينًا، ومن اللعنة التي تجعلني أعرف ما يجري لآلاف المخلوقات في كل لحظة. أردتُ الفرار، حتى لو كان هروبًا مؤقتًا..

كم مرةً كنتُ أقول لنفسي، كلما تصاعد الصداع في رأسي، سواءً وأنا أطبخ، أو أسير إلى عملي:

–" ما أنا بإلهٍ، يا من كساني هذي اللعنة.."

لكن لا جواب..

لنفهم ما حصل.. دعونا نعود للماضي القريب قليلاً.. ولن أكتب كل ما حصل سألخص كثيراً .. إذاً..

حين رحلت أختي، كنت أعمل، ورغم أني أحب مهنتي، إلا أني منذ تلك الحادثة لم أعد أعمل إلا لقوت يومي.. مضت الأيام حتى وصلت إلى تلك الجزيرة، التي تفصل بين أرض التاب وأرض السابيان. جمعت بعض النقود لقضاء هذه الإجازة، ظننت أن البحر والسماء المفتوحة سيغسلان عني أوجاع السنين.. لكني كنت واهمةً.

في اليوم التالي، كان رأسي مثقلًا، روحي أشد ثقلًا.. جلست في حانةٍ تطل على البحر، أمامي كأسٌ كحولٍ.. لونٌ شفّافٌ يميل للصفرة، كأنما يعكس صورتي المرهقة.. لم أكن أريد الشرب، أقسم بذلك.. لكن يدي امتدت إليه، كأنها ليست لي.. رشفةٌ.. رشفتان.. ثم غدوت أغرق فيه بدل أن يغرق هو فيّ.

الضوء صار باهتًا.. الأصوات تداخلت.. تحولت الضحكات حولي إلى أصداءٍ بعيدة، وكأنها تأتي من قاع البحر.. جسدي صار ثقيلًا، لكنه يتحرك رغم ذلك، يتمايل كريشةٍ في مهبّ الريح.. لم أعد أميز الطريق، ولا أتذكر كيف خرجتُ، ولا كيف سقطتُ على رصيفٍ باردٍ، جسدي مريٌّ كدميةٍ فقدت صاحبها.. ثم.. العتمة.

حين فتحت عينيّ، كان رأسي ينفجر.. جيبي فارغٌ، أموالي اختفت.. سُرِقتُ.

لكن سرعان ما عادت أموالي.. حيث أني قضيت ساعتين أبحث عن السارق بقدرتي التي تتململ في داخلي، لم أكن غاضبةً بل لا مباليةً.. ذاك المسمى بالجفاف العاطفيّ في الذات.. وأخيرًا، وجدت مكانه. ذهبت إليه، أنفاسي متلاحقة، الغيظ يتدفق في عروقي، لكني

توقفتُ.. صُدمتُ.. لم يكن لصًّا متمرسًا، ولا شابًا جشعًا.. بل امرأةٌ عجوز، منحنية الظهر، شعرها رماديٌّ كالغبار، ووجهها مجعّد كأوراق الخريف اليابسة..

كان لقائي الأول بعجوز الخريف بشارةً خفيّة، إذ همست لي عن ابنتي: لقد وجدت رفيق دربها.. تزوجت.

ـــــــــــــــــــ | يٌ : 3 | ـــــــــــــــــــ

حرب..

في سراديب الظلم، زحف الضباب على زنازين البشر كجيشٍ صامت، معلنًا بدء حرب لا رحمة فيها. ومع أول شقّ للغيم، أشرق ضوء الانتقام في عيني من أفاقت من سباتٍ امتدّ أطول من عمر الحنين.

بشعرها الأسود المنساب وعينيها الحمراوين كجمرة متقدة، فتحت رُتَعْدَنْ جفنها الثقيل، وعضّت شفتيها بغيظٍ لم يعرف له الزمان مثيلًا...

رأيـك !!

لن أطلب رأيك لأُرضي غروري، فقد كتبت ما يكفي لأعرف قيمته. لكن إن وجدت شيئًا يستحق أن يُقال عنه شيء.. فقل. كلماتك لن ترفعني، لكنها قد تُدهشني. صفحتي على "أنستاغرام" مفتوحة، كما أنا، لمن يملك الجرأة على قول ما يراه.

إنتظرونا في الجزء الثاني

رُثَـعْـدَنْ 2

أنس زايدلي